شباكُ تَذاكر

تأليف:
كاتبات مبادرة في القراءة حياة أخرى

دار فكرة للنشر والتوزيع

٢٠٢٣

بطاقة الفهرسة

تأليف:

كاتبات مبادرة في القراءة حياة أخرى

اسم الكتاب:

شباكُ تذاكر

الجيزة: دار فكرة للنشر والتوزيع

تدمك ٩- ٤٦- ٦٩٤٣- ٩٧٧-

القصص العربية

رقم الإيداع: ٢٢٢١٩

٢٠٢٣ الطبعة الأولى:

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دارفكرة للنشر والتوزيع – عضوية اتحاد الناشرين المصريين

رقم: ٧١٣ – جمهورية مصر العربية

٠٠٢٠١٢٨٢٤١٠٤٥٨ / ٠٠٢٠١١١٤٤٤٣٥٤

Fekra.publishing@yahoo.com

المراجعة اللغوية: أ/ أحمد عبد الحليم

تنسيق وإخراج: أ/ ميناس محمود

الإشراف العام: أ/ أيمن الصباح

الإهداءُ

نُهدي هذ العمل إلى كلِّ امرأةٍ مصريةٍ أو عربية..
إلى كلِّ أبٍ وإلى كلِّ شاب..
نُهدي هذا العمل إلى كلِّ أطياف المجتمع..
نُهدي هذا العمل إلى الصديقة رشا ماجد، أوَّل من
آمنت بفكرة هذه المُبادرة منذ صدورها..
نُهدي هذا العمل إلى الرقيقة الحانية دنيا درويش..
مَن استضافتنا في كورنرها الرائع على صفحات
الفيسبوك..

شُكر

نقدِّم الشكر والتقدير إلى:
حاكِم المنطقة اللوينزية ٣٥٢مصر
٢٠٢١/٢٠٢٢
الليون إجلال بهادر..
ومن خِلال لجنة القراءة بالمنطقة تحتَ رئاسة الليون هالة القاضي..
لدعم وتبنِّي مُبادرة "في القراءةِ حياةٌ أخرى" في جميع أنحاء جمهورية مصر العربية..
ونقدِّم الشكر إلى الكاتبة عبير جمال الدين، عن فترة انضمامها للمُبادرة، مع تقدير كلِّ ما ساهمت به أثناءَ تلك الفترة..

التَذكرةُ الأُولى

النَصيحةُ المَلعونةُ

بقلم: جيهان سرور

وقفت

أمام المرآة تتزيَّن قبل أن تذهب إلى زيارة صديقتها وفاء..

تضع عطرها الفوَّاح.. تزيد من حُمرة خديها.. تنظر إلى ساعتها، فتجدها قد قاربت الخامسة عصرًا.. موعد عودته إلى المنزل.

حملتْ حقيبتها سريعًا، وأسرعت الخُطى نحو منزل صديقتها الذي كان يبعُد عن منزلها ثلاثة شوارع فقط.

شاهدته قادمًا من الشَّارع المقابل.. تتلاقى العيون؛ فتزداد الخدود احمرارًا. تلاقيَا عند باب المنزل. ألقى عليها التحيَّة، وأشار لها أن تتقدَّمه في الصعود.. كانت تأمل أن يصعدا معًا؛ يُبادلها الحديث، لكنه دائمًا يكتفي بالتحيَّة.

صعد بعدها بفترةٍ قصيرةٍ حاملًا أكياسًا من الحلوى المفضَّلة لها، وتركها أمامهما، وانسحب، تاركًا إيَّاها في هدوءٍ..

لكنها لم تسْلم من تلميحات صديقتها الوحيدة، عندما رأتْ ما تحتويه الأكياسُ من حلوى.

كانت تأمل أن تتقدَّم مرحلة التلميحات إلى خطوة التنفيذ.

مرَّ أكثر من عامٍ وهي تنتظر البَوْح بمشاعره تجاهها..

حتى جاء اليوم الحاسم، عندما بلَّغتها وفاء بأمر أخيها قائلةً:

- بسمة، منذ فترةٍ طلب حازم مني أن أخبركِ برغبته في الاقتران بكِ، وكثيرًا ما حاولتُ أن ألّمح لكِ، لكني كنتُ أتردَّد في اللحظة

الأخيرة؛ خشيةً من رفض أسرتكِ بسبب ظروفه المادِّية، لكنه أصرَّ بالأمس على أن أسألكِ كي يحدِّد موقفكِ تجاهه.

ارتبكَتْ بسمة قليلًا وهي تشعر برجفةٍ في كلِّ أوصالها. أرادَتْ أن تُعانق صديقتها، وأن تصفعها في آنٍ واحدٍ؛ لتردُّدها كلَّ تلك الفترة السابقة. آهٍ لو تعلم ماذا فعلَتْ بها كلَّ هذا الوقت!

تخوَّفت وفاء قليلًا من صمت بسمة، وشعرَتْ بالخجل من صديقتها؛ فكادت أن تطلب منها أن تنسى كلَّ ما قيل، إلَّا أن بسمة أجابتها قائلةً:

- متى عُرف عن الحاجِّ عبد الوهاب تقييمه للناس بما يملكون؟

انفرجَتْ أسارير وفاء بعد أن علمت مُوافقة بسمة الضِّمنية على أخيها؛ فهي تعلم مدى تعلُّق والدها بها، وتحقيقه كل ما تتمنَّاه.

وفي خلال أيامٍ، انفرد الحاجُّ عبد الوهاب مع ابنته الوحيدة قائلًا:

- منذ أن تقدَّم لك حازم، ورغم معرفتي الوثيقة بوالده -رحمة الله عليه- لكني أجريتُ تحرياتي الخاصَّة للتيقُّن من صحة ما أعلمه عنه؛ فأنتِ بالنسبة لي كالجوهرة الثَّمينة، لابد أن أتحرَّى عمَّن يستحقها..

وبعد أن اطمأنَّ قلبي وتأكدتُ من سيرته وأخلاقه الطيبة، كان عليَّ أن أسألكِ الرأي، بعد أن أُخبركِ بأنه رغم أخلاقه الرائعة، فإنه لا يتمتع بسَعةِ الحال يا وحيدتي، بل يُمكننا القول إنه بالمُقارنة بحياتكِ يُعدُّ ضيِّق الحال.. فهل ستستطيعين صبرًا على تلك الحياة؟

لم تتردَّد كثيرًا في التفكير، بل أجابت بثقةٍ:

- وهل أستطيع صبرًا على ضِيق الخُلق يا أبي؟! ما دام مالٌ لأحدٍ، وما دام الضِّيقُ على أحدٍ.

ضمَّها والدها إليه مقبِّلًا جبهتها قائلًا:

- على بركة الله.. مباركٌ عليه.

وبعد مرور أشهرٍ قليلةٍ، تمَّ زواجهما في شقةٍ بالإيجار بالقرب من منزل والدته ومنزل أسرة بسمة.

مرَّت الأيام والشهور على أسرتها الصغيرة في فرحٍ وسعادةٍ.. رغم ضِيق الحال، فإن "حازم" كان يرفض رفضًا قاطعًا محاولة بسمة مُشاركته بعض مصاريف الحياة..

عاتبها أكثر من مرةٍ على إلحاحها في تقديم المُساعدة؛ لشعوره بالتَّقصير تجاهها، وضآلته أمامها..

حتى جاء يومٌ وبشَّرته بشارةً سارةً، بقدوم ضيفٍ جديدٍ سيُنير لهما الطريق.

قرَّر أن يضاعف فترات العمل؛ لمواكبة زيادة الأسعار وزيادة الالتزامات..

مرَّت الشهور سريعًا، ورزقهما الله بـ "مازن"، ثم "مروة" بعده بأقلَّ من عامٍ.

لم تندم بسمة يومًا على اختيارها، بل كانت أواصر العلاقة بينهما تتوطَّد كلَّ يومٍ. كانت تستنشق الحياة من خلاله. تشعر بالسَّكينة كلما اقتربَتْ منه..

في نهاية كلِّ شهرٍ، كانت تشعر ببعض مشاعر الضِّيق تلوح في الأفق بينهما، لكنها مع العِشرة استطاعت أن تتحايل على تلك المشاعر بشكلٍ أفضل بكثيرٍ ممَّا مضى..

اعتاد كلٌّ منهما الحفاظ على تلك اللقاءات الأسبوعية مع أصدقاء العمر..

حتى جاء هذا اليوم..

بعد مرور أكثر من سبع سنواتٍ على زواجهما..

في مساءِ أحد الأيام، وبعد لقائه مع أصدقائه، عاد إلى منزله تُفارق وجهه بسمته المُعتادة، منطفئ الرُّوح..

حاولَتْ أن تعلم أو تستشفَّ ما أصابه من تغيُّر، لكنْ باءت كلُّ محاولاتها معه بالفشل.

مرَّ أكثر من شهرٍ عزف فيها حازم عن لقائه بأصدقائه، دون أن يعطي سببًا لذلك.

لم تستطع أن تتحايل في تلك الفترة على أوقات الضَّجر المصاحبة له آخر كلِّ شهرٍ، بل امتدَّت تلك الفترة حتى قاربت على القضاء على ثُلثي الشهر..

حتى واجهتْه يومًا قائلةً:

- ماذا تعني لكَ الحياة؟

أصابته الدهشةُ من سؤالها؛ فعجز عن الردِّ.

أعادَتْ عليه السؤال مرةً أخرى:

ماذا تعني لكَ الحياة؟

أجابها: - أنتِ.

- كيف؟

- أنتِ بالنسبة لي الحياة.. لا أرى معنًى للحياة بدونكِ.

- أتعلمُ ماذا تعني لي الحياة؟

الحياة بالنسبة لي، أن أبحث فيها عن السَّعادة. ألَّا أترك الظروف تُكبِّلني بقيودها؛ فتُفقدني مُتعة الحياة.

- تقصدين أنني أكبلكِ بقيودي.. بفقري؟!

سخرَتْ منه قائلةً:

- بل تُكبلني بتحجُّر فكركَ، وبتسليم حياتنا لقيودٍ وهميةٍ نسجتَها بخيوطٍ من حريرٍ.. تبدو رقيقةً ناعمةً، لكنها في قوة النصل الحادِّ.. لا تُصيبك بالجرح، بل تُصيبك بالقطع.

- ماذا تعنين؟

- أنتَ تبني حاجزًا مرتفعًا بيني وبينك تحت مسمَّى أنك الرجل، وعليك أن تتكفل بكلِّ مصاريف الحياة. لا أنكر أن هذا ما أمرنا به الله، لكنْ ماذا تعلمُ عن السَّكن والمودَّة والرحمة؟ ألا تستحقُّ الحياة أن نحياها معًا؟!.. سبعة أعوامٍ وأنا أدَّخر راتبي بلا داعٍ أو معنًى!

طلبتُ منك أن أغطِّي معك بعض المصاريف؛ كي ننهل من الحياة ما تبقَّى من عمرنا سُعداء، لكنكَ دائمًا توصد كلَّ الأبواب بيننا.. لا يُمكنني الحياة بتلك الطريقة.. عليكَ أن تقبل إمَّا أن نعيش الحياة أحياء، وإمَّا أن نترك الحياة تعيش على أنقاض سعادتنا.

لم يكن وَقعُ كلماتها عليه بالأمر اليسير، بل كان كالخِنجر المسموم في أعماق القلب!

كان كالمحموم يتلظَّى من الحرارة، ويأبى تناول الدواء.

بعد سبعة أعوامٍ سمح لها أن تُشاركه في بعض التزامات الحياة..

مرَّت بهم الأيام، يومٌ يلي الآخر، قد هلك فيها كلُّ ما ادَّخرتْه على مدار الأعوام السبع، في محاولاتها استعادة سعادتهما معًا..

تارةً في قضاء إجازةٍ صيفيةٍ، وتارةً أخرى في قضاء سهرةٍ لمشاهدة فيلم سينما جديدٍ.

استيقظت بسمة يومًا على رنين هاتف منزلها، لتجد شقيقها يطلب منها أن تحضر إلى منزلهم سريعًا؛ لأن والدها قد أصابته وعكةٌ صحيةٌ شديدة.

أيامًا قليلةً واستعاد الله وديعته في هدوءٍ وسكينةٍ..

فقدَتْ بسمة مع والدها القوة التي كانت تمتلكها بوجوده.. زهدَتِ الحياة من بعده

وما زاد من ألمها، هو ذلك الجَفاء الذي أحاط علاقتها بحازم. لم تشعر بمؤازرته لها؛ فقد اكتفى بالتربيت على كَتِفها، وضمَّها إلى صدره قليلًا، وتركها وانسحب من المشهد!..

يرفض الاجتماع مع أشقَّائها بعد انتهاء أيام العزاء؛ خوفًا من الحديث في أمور الإرث في وجوده. كانت تعلم حساسيته من هذا الأمر.

لكنَّه لم يُلقِ بالًا لمشاعرها آنذاك.

مرَّت الأيام والشهور.. حاولتْ بسمة أن تستعيد صفو رُوحها، لكنَّ الرُّوح ظلَّتْ منطفئةً، لم تستعدْ بهجتها منذ ذلك اليوم الحزين.

بعد عدَّة سنواتٍ..

أنهى مازن دراسته الثانوية بمجموع لا يُمكِّنه من الالتحاق بكلية الهندسة كما كان يتمنَّى، وكان البديل الوحيد أمامه هو الالتحاق بإحدى الجامعات الخاصَّة..

تردَّدتْ بسمة قليلًا قبل أن تنفرد بحازم قائلةً: - حازم، من المؤكَّد أننا لن نضيِّع على مازن فُرصة الالتحاق بالجامعة التي طالما تمنَّى الالتحاق بها.

نظر إليها مليًّا ثم سألها:

- هل تعلمين قِيمة مصاريف الجامعات الخاصَّة؟

- أعلم.. وأعلم أنني أستطيع أن أحقِّق حُلمه إذا وافقتْني على بيع جزءٍ من ميراثي..

لم يردَّ على اقتراحها، بل اكتفى بأخذ مفاتيح منزله، وخرج تاركًا إياها حائرةً.

ظلَّ يجول في الشَّوارع والطُّرقات، يستعيد حديث صديقه في تلك الليلة اللعينة منذ أكثر من عشرة أعوامٍ، ويتذكَّر ما حدث له بعد هذا اليوم.

نظر إلى ساعته فوجدها قد أوشكت على الاقتراب من العاشرة مساءً.

ذهب لإحضار عشاءٍ ساخنٍ من المطعم القريب من المنزل قبل أن يخلُد مازن ومروة للنوم..

عاد وقد لاحت بسمةٌ على وجهه قد فارقتْه منذ فترةٍ طويلةٍ..

استقبلتْه بسمة وهي تحاول أن تستشفَّ سِرَّ تبديل حالته، لكنَّه اقترب منها وعانقها وهمس في أُذنها:

- بعد العَشاء سنتحدَّث معًا.. لا تقلقي.

لم تهدَأ بسمة حتى انفرد بها داخل غرفة نومهما مساءً

قائلًا: - لا تقلقي يا بسمة، فكرتُ مليًّا في حديثكِ معي عن ضرورة إلحاق مازن بجامعةٍ خاصةٍ، رغم أنني كنتُ أُفضِّل أن يُعيد العام الدراسيَّ مرةً أخرى؛ كي يعلم أن النجاح الحقيقيَّ هو أن يحقِّق الهدف بمجهوده وليس بمساعدة الآخرين..

وقبل أن تُقاطعه، أشار لها أن تهدأ وتتركه يكمل حديثه قائلًا: - ولأني أعلم عدم موافقتكِ على رأيي، وعدم مساندتي في تحقيقه، وافقتُ على إعادة تدوير ميراثكِ بشكلٍ يُسهم في تحقيق التحاقه بالجامعة.

تساءلتْ:

- وما هي آليةُ تدويره؟

- ما رأيكِ في العمل في العقارات؟

بعد أن نبيع قطعة الأرض الزِّراعية والمنزل القديم، سنضعُ في البنك قيمة مصاريف الجامعة، والباقي سندخل به شَراكةً مع أحد الأصدقاء في شراء العقارات.

ترددَتْ بسمة قليلًا قبل أن تسأله خشيةً من رفضه مرةً أخرى:- ولماذا نبيع كليهما؟

يُمكن بيع قطعة الأرض، ووَضْع المبلغ في البنك،

والاستفادة من العائد في دفع المصاريف.

أجابها بنبرةٍ هادئةٍ: - لكنَّ وضْع المال في البنوك يقللُ من الحفاظ على قيمته الحقيقية..

أنتِ تعلمين أن الحالة الاقتصادية الآن ليست في وضعٍ مستقرٍّ.. العقارات فقط هي الملاذ الآمِن للاستثمار.

وافقتْ بسمة على مضضٍ، وبدأ حازم في خُطوات البيع والتبديل والشِّراء والتعاقُد، مع صديقه في الاستثمار العقاري.

كانت العقود تُلزمهم بعدم المُطالبة بالأرباح إلَّا بعد مرور عامين، أو بانتهاء بيعِ كاملِ العقار، أيُّهما أقرب.

أتاح له هذا الشَّرط أن يأمن عدم توفُّر أيِّ مالٍ في يدها لمدة تلك الأعوام، وعدم القُدرة على السَّحْب من البنك؛ لالتزامهم بسَداد أقساط مصاريف الجامعة.

وكلما انتهى أحد المشاريع، كان يقتصُّ مبلغًا بسيطًا من الأرباح لها، ثم يعيد الاستثمار مرةً أخرى؛ كي يحافظ على قيمة المال.

استمرَّ الأمر هكذا، حتى تخرَّج مازن ومروة من الجامعة.

لا تستطيع بسمة أن تُنكر أن تلك الأعوام الخمسة قد استعادت فيها الكثير من السَّعادة، التي فقدتها في بداية حياتها.. لم يكن المال

يومًا هو سببُ سعادتها، بل كانت سعادتها الحقيقية تكمن في هُدوء حياتها مع أسرتها.

حتى جاء يومٌ استيقظتْ فيه على جرس الباب، لتجد حارس العقار يقف أمامها قائلًا:

- مدام بسمة، لن أستطيع أن أنتظر الأستاذ حازم عند عَوْدته عصرًا لأعطيَه هذا الخطاب؛ لأني سأسافر الآن إلى البلد لمدَّة ثلاثة أيامٍ.

أمسكتْ بسمة الخطاب المدوَّن عليه اسم زوجها، ويحمل ختمًا يدلُّ على أنه من جهةٍ حكوميةٍ. انتابتها حيرةٌ شديدةٌ.. فتحت الخطاب، لتجد أن هناك مطالبةً بسَداد قيمة الضَّرائب العقارية المتأخِّرة على العقار الكائن في... القاهرة الجديدة.. بقيمة عشرين ألف جنيهٍ لا غير..

اسم صاحب العقار/ حازم رءوف عبد المطلب.

وقعَ عليها الخبر بقوةِ ارتطام جسدٍ أُلقيَ من الدَّور الخامس على غِرةٍ..

عاد من عمله.. وجدها كما هي، كما تركها صباحًا، يبدو عليها أنها لم تُبارح المنزل وتذهب إلى عملها اليوم. تقدَّم إليها قلقًا من مظهرها الذي يبدو كما لو أنها تلقَّت خبرًا صادمًا. سألها:

- هل أنتِ بخيرٍ؟.. مروة بخيرٍ؟ مازن بخيرٍ؟ ماذا حدث يا بسمة؟.. ما بكِ؟

قرَّبتْ منه الخطاب متسائلةً: - ما معنى هذا؟

أخذ منها الخطاب وفتحه، ليعلم أنه قد حان الوقت ليقصَّ عليها أمر هذا الخطاب.

أخذها من يدها وأجلسها قبالته قائلًا: - سأقصُّ عليكِ أمرًا حدث معي منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.. في أحد اللقاءات التي كانت تجمعُني مع أصدقائي.

في ذلك اليوم، انضمَّ إلينا صديقٌ كان مرَّ على آخر لقاءٍ يجمعنا به حينها أعوامٌ عديدة. كان باحثًا في مجال علم النفس والاجتماع، وله العديدُ من الأبحاث في مجال العَلاقات الأسرية والزَّوجية تحديدًا.

جلسنا جميعًا يومها نستمع إليه، وإلى ما توصَّل له من أسرار نجاح الحياة الأسرية والزَّوجية، فقصَّ علينا حينها ما توصَّل إليه بعد دراسةٍ وأبحاثٍ في نفوس المرأة، والمرأة المِصرية خاصةً، وأنها "إذا امتلكت المالَ في يدها.. خلعَتْ". ثم بدأ يستفيضُ في الشرح قائلًا: إن المرأة إذا ملكت المال في يدها، خلعَتْ من تحت عَباءة الرَّجل؛ فقد أباح اللّه لها ذمةً ماليةً مستقلةً، لها حقُّ التصرُّف فيها كما تشاء، دون أن تُلام أو تُسأل..

فقاطعتُه يومها قائلًا: - وما الضَّرر في ذلك؟

ثم هل أباح اللّه ذلك للمرأةِ المصرية فقط؟

فأجابني قائلًا: - لا يا صديقي، أنا أتحدَّث عن نشأة وتربية المرأة المصرية. دعني أسألك سؤالًا:

أنتَ متزوجٌ من سيدةٍ تُعد من عائلةٍ ثريةٍ، ماذا لو استيقظتَ يومًا ووجدتَ زوجتَك قد ورثتْ مبلغًا من المال، لن تحصل أنتَ عليه مهما

تقلدتَ المناصب، حتى يوم الممات؟ ألن تشعر بالصِّغر أمامها وأنتَ تراها تبتاع بعض الأغراض الخاصَّة بها بمقابلٍ ماديٍّ يضاهي قيمة راتبك الشهريِّ؟ هل تستطيعُ أن تمنعها عن ذلك؟

هل تتخيل يومًا، إذا أراد أحدٌ من أبنائك شيئًا يفوق قُدرتك المادِّية ورفضتَ لضيقِ ذاتِ اليدِ، فذهب إلى والدته طالبًا ما رغب فيه، وأخبرَتْه بأنها ستُحضرُه له من مالها الخاصِّ.. ما هو موقفك آنذاك؟ وهناك العديدُ من تلك الأمثلةِ المشابهةِ.

لم تبرحْ تلك الجملة رأسي يا بسمة لفترةٍ طويلةٍ. كنتُ أخشى أن يأتي يومٌ وأراكِ قد ضربتِ بحياتنا معًا عرض الحائط، حتى تفتَّق ذهني عن تلك الفكرة..

ذهبتُ إلى شقيقتي، واقترحتُ عليها أن نعرض منزل أبي للبيع، بعد أن تُرك مغلقًا أعوامًا عديدة بعد وفاة والدتي -رحمة الله عليها- وتقسيم قيمته بيننا كما شرع الله، على أن يبقى هذا الأمر سرًّا بيننا..

وبالفِعل بعد أن رحبَتْ بالعرضِ بدأتُ في التنفيذ، وأثناء تلك الفترة أعلنت الحكومة عن بيع قطع أراضٍ في القاهرة الجديدة.. قدمتُ وحصلتُ على قطعةٍ بسعرٍ بسيطٍ، وبعد استلام قطعة الأرض، بدأت في ادِّخار بعضٍ من المال كلَّ شهرٍ لأتمكن من بناء الهيكل الخرسانيِّ، وذلك على مدار ثلاثة أعوامٍ.. ومع الأيام، استطعت أن أنتهيَ من بنائه تمامًا..

هذا هو كلُّ ما حدث يا حبيبتي..

باغتته متسائلةً: - ولماذا لم تبعْ جزءاً من هذا العقار لدفع مصاريف مازن في الجامعة؟

لطمهُ سؤالُها، فلم يتمكَّن من الإجابة عليه، فاستطردت قائلةً: - لن تستطيع أن تُجيب على هذا السؤال يا حازم..

لن تستطيع الاعتراف بأنك قد خشيتَ الخسارة كي لا يختلَّ الميزان مرةً أخرى.

قاطعها منفعلًا: - عن أيِّ خسارةٍ تتحدثين؟ لقد حافظتُ على مالكِ، حتى قيمة مصاريف جامعة مازن قد عادت إليكِ على هيئة أرباحٍ.. أنا لم أطمع في مالكِ يومًا.

سخرَتْ منه قائلةً: - خسارتكَ في تحقيق ما سعيتَ له منذ سنواتٍ، بعد إيمانكَ بنظرية صديقك الويِّ،

بأنه في حالة بيع ميراثي ووضعِه تحت قبضة يدكَ؛ فسوف تتمكَّن من التحكُّم فيَّ، وبالتالي لن أتمكَّن من "الخلع".. كما سمَّاها صديقك، وهي كلمةٌ لا يجب أن ترقى وتُستخدم بيننا.

لم يرَ صديقك الدَّارس لطبيعة المرأة المصرية، سوى أن المرأة ما هي إلا كائنٌ ماديٌّ يجري وراء ملذَّات الدنيا، غير عابئةٍ بنجاح أسرتها وبتوطيد علاقتها مع زوجها بمودةٍ ورحمةٍ..

لم يرَ صديقك من المرأة المصرية إلَّا بعض النماذج الفردية. لن أستطيع أن ألقي عليه اللوم.. لكنْ سيظلُّ السؤالُ بيننا: ماذا رأيتَ أنتَ مني جعلكَ تظنُّ بي أنه ينقصُني المال كي أتركَكَ؟ تزوجتُ منك

وأنا أملكُ المال. قبلتَ بمشاركتي في بعض المصاريف بعد أن ألححتُ في الطلب أعوامًا وأعوامًا.. لم تتفهم أسباب قبولي الارتباطَ بكَ..

هل تخيلتَ للحظةٍ أنني قبلتُ بكَ لمالكَ أم لعزوف العِرسان عني؟

رمقها بنظرةٍ عاتبةٍ بعد تلك الكلمة، لكنَّه آثر الصمت بعد أن وجد الغضب قد تملَّكها وهي تستطرد في حديثها قائلةً: استطعتَ أن تخفي عني هذا الأمر كلَّ تلك الأعوام.. حتى إنكَ استأمنتَ الحارس أن يتسلَّم نيابةً عنكَ أيَّ خطابٍ يأتي لك، ويسلمه لكَ دون أن يعلم أحدٌ بالأمر..

استطعت أن تخفي كلَّ ما يخصُّك أعوامًا وأعوامًا..

حتى صديقة العمر -شقيقتك- لم تتركها لي.. طلبتَ منها أن تخفي معكَ الأمر كما لو كنتُ عدوًّا لكَ.. إلى هذا الحدِّ كنت تراني؟

تقدَّم إليها محاولًا أن يبرِّر ما فعله آنذاك، لكنَّها أشارت له قائلةً: - أرجوكَ، لا أريد أن أستمع إليكَ بعد اليوم.. سأطلب منك طلبًا أخيرًا لن أتراجع أو أتنازل عنه إطلاقًا..

أريد الطَّلاق..

المرأة إذا جُرحت.. تلتئم جراحُها، ولكن يظلُّ أثر تلك الندبات باديًا عليها..

لكنْ إذا قُتلت المرأة في فؤادها.. فلن يتمكن أحدٌ من إحيائه مرةً أخرى..

شباكُ التَّذاكر

التَذكرةُ الثانيةُ

الـثُـقبُ

بقلم: سلوى مرجان

الثَّقب

لذي بسور حديقتنا يطلُّ على العالم،منه رأينا أخي تجرُّه الخيول مسحولًا على الأرض، بعدما حكم عليه قاضي المدينة بالسَّجن الأبدي، ومن خلاله رأينا أبي وهم يُطلقون عليه الرَّصاص بعد سرقته للمبيدات التي وضعتها الدولة في الخِزانة ولم تصرفها للفلاحين؛ حتى قضت الحشرات على أراضيهم.

الفتحة التي بسور حديقتنا تطلُّ على العالم، منها رأينا "عائد" وهو يقف أمام عُمدة البلدة، بعدما منع العُمدة بَذر البذور؛ لتموت كلُّ الطيور خِماصًا.. فقرَّر "عائد" أن يبذر الحبوب على الطَّريق؛ حتى تلتقطها الطيور وتعود لأعشاشها بِطانًا.. ومنها رأينا "عائد" وهو مقيدٌ بالأغلال ومُلقًى به في مصحَّة الأمراض العقلية،

بعدما شهد عليه جيرانه باعتدائه بالضَّرب على قطط البلدة وسَلّخها وتناوُلها.

وأخيرًا.. الفتحة التي بسور حديقتنا، لم نعُد نرى من خلالها أيَّ طائرٍ يمرُّ ببلدتنا ولو على سبيل الخطأ، بينما لم تبرحْ أمِّي مكانها خلف فتحة السُّور، منتظرةً عودة أخي "راشد".

في صباحِ نهارٍ ربيعيٍّ، كنتُ أحرث أرض الحديقة استعدادًا للزرعة الجديدة، وكانت أمي على وضعِها منذ عامين، تجلس خلف فتحة السُّور..

تترقب إشارةً من السماء.

ألقيتُ عليها تحية الصَّباح، فردَّت وهي مُوليةٌ ظهرها لي. انتهيتُ من عملي قُبيل الظهيرة، ثم أخذتُ السِّماد ووضعتُه على العربة، وربطتُ الحمار بالعربة، وذهبتُ إلى الأرض.

أرضُنا قيراطان يقعان على طرف البلدة، أزرعهما بنفسي بمُساعدة صديقتي "فجر"، وأخيها "معاون". عندما نزلتُ الأرض كانت فجر تقف هناك..

تُحملق نحو السَّماء باستغراقٍ شديدٍ. اقتربتُ منها وأنا أنظرُ هناك؛ لعلِّي أفهم سببًا لاستغراقها، لكني لم أرَ شيئًا، فقلت لها قاطعةً شرودها:

- صبَّحكِ اللّه بالخير يا فجر.

التفتَتْ لي مشدوهةً وقالت:

- صبَّحنا جميعًا يا "علياء".. لن تصدِّقي ما رأيتُ.

افترشتُ الأرض وسألتُها بعدم اعتناءٍ:

- ماذا رأيتِ؟

صاحتْ بلهفةٍ: طير.. لقد رأيتُ طيرًا.

ضحكتُ ملء فمي وقلتُ: خيالاتٌ يا فجر، ما من طيرٍ يمرُّ من هنا.

طأطأتْ فجر رأسها، وعادتْ للعمل، وبعد قليلٍ أتى معاون يُخبرنا أن الحكومة رفعت الضَّرائب على كلِّ مَن يملك أقلَّ من فدانٍ! فضرب الدمُ برأسي وصرختُ: هذا دربٌ من الجنون، أيُعقل أن تزيد الضَّرائب على الفقراء،

في حين يكدِّس الأغنياء رءوس أموالهم ليرتفعوا بها أكثرَ فوق جباهنا؟!

هتفت بي فجر قائلةً: صهْ يا علياء! لديكِ أمٌّ ليس لها غيركِ.

رددتُ بنفاد صبرٍ وقلتُ: لا طاقة لي بأفعالهم بعد اليوم.. سأذهب إلى ذلك العُمدة منزوع السِّروال، وأخبرُه أني لن أدفع ضريبةً بعد اليوم.

حاول معاون وفجر منعي، لكنَّ الكيل قد فاض بي، فذهبتُ مسرعةً وقد تملَّكني الغضب، وقبل وصولي لبيت العُمدة فكَّرتُ.. أن أمي ليس لها غيري، وهؤلاء أشرُّ الخلْق، ولن يتورَّعوا عن إيذائي، وأنا فتاةٌ جميلةٌ، لديَّ من الحُسن وحُلو الكلام ما يَذهب بالعقول،

فلم لا أستخدم معهم الحيلة،لعلَّهم يبتعدون عني وعن أرضي بمكرهم؟ فعقدتُ العزم، ودخلتُ عليه وأنا أُضمر له أمرًا..

وقفتُ أمامه باسمةً وأنا أقول: طاب نهاركَ سيدي كما لم يطبْ لسواكَ.

فنظر لي نظرة حيرةٍ؛ لأنه يعلم مَن أنا، ومَن هو أبي وأخي، فهزَّ رأسه وهو يُتمتم: طِبْتِ.

جلستُ دون إذنٍ منه، وقلت وأنا أنظر لعينيه باسمةً: يقولون إن الحكومة رفعت الضرائب على الفُقراء أمثالي.

رفع العُمدة كرشه السَّمين الذي يتدلَّى أمامه كامرأةٍ حاملٍ وقال: نعم.. ولهم رؤيةٌ واضحةٌ.

وما هي تلك الرؤيةُ الواضحة لأمثالكَ من المتعلمين النُّجباء، والتي تخفى على أمثالي من الحمقى السُّفهاء؟

اغترَّ البرميل بنفسه واعتدل في جِلسته وقال:

أمَّا بعدُ، ولأنكِ كحمارةٍ صغيرةٍ لا تفهمين شيئًا، فسأخبرُكِ أن الحكومة ترى أن الفقراء لاعتيادهم على الفقر وقِلة الرِّزق؛ فهم أكثر قدرةً على تحمُّل الضغوط من الأغنياء الذين ربَّما يموتون كمدًا إن أخذنا شيئًا منهم مهما قلَّ.

احتفظتُ بالبصقة في فمي، فربَّما أحتاجها فيما بعدُ عندما ينشِّفون ريقنا، وقلتُ بدلالٍ وأنا أكتم غيظي: لكني فقيرةٌ يا سيدي، وأنتَ لا يخفى عليك حالنا.

رفع حاجِبه ونظر لي بخبثٍ وسأل: ماذا تُريدين يا أخت راشد؟

- تأجيل الضَّريبة حتى ميعاد الزَّرعة.

- والمُقابل؟

- ليس لديَّ ما أعطيه لكَ.

نظر لي بوقاحةٍ وقال: لديكِ الكثير، الذي ربَّما يُعفيكِ نهائيًّا من الدَّفع.

شعرتُ في هذه اللحظة أني فتاةٌ ساذجةٌ لتصوُّري أنه يُمكنني اللعب مع الشيطان؛ فالطرقُ القذرة التي يتبعها هؤلاء، لا أعرف كيف المسير إليها؛ لذا تغيرَتْ ملامحي ونهضتُ واقفةً وقلتُ: حقًّا.. أنا لديَّ الكثير ممَّا ستراه قريبًا، ولن أدفع الضَّريبة، لا القديمة، ولا الجديدة.

وقبل أن ينطق بكلمةٍ، كنتُ قد نهضتُ، وسمعته من ورائي يصرخُ: ستدفعين أكثر ممَّا تتوقعين أيتها العاهرةُ الصغيرة.

أسرعتُ نحو البيت، وبمجرَّد وصولي، صاحَتْ بي أمي: لن تصدِّقي ما رأيتُ!

شعرتُ أنها نفس عبارة فجر، فقلتُ مستفسرةً: أوَرأيتِ طيرًا!

فنظرَتْ لي بعجبٍ وقالت: وما أدراكِ؟

فاقتربتُ منها لأنظر من فتحة السُّور وقلت: الغريبُ أن فجر أيضًا قالت إنها رأت طيرًا، لكنِّي لم أصدِّقها.

قالت أمي بثقةٍ: ولكنكِ تعلمين أن تلك الفتحة لا تكذب أبدًا.

هززتُ رأسي موافقةً وقلت: نعم، أعلم يا أمي.

انشغلتُ بأمور البيت طيلة اليوم، وعندما حلَّ المساء ذهبتُ لأمي بالعشاء، فوجدتُها متهللة الأسارير، فاقتربتُ منها وقبَّلتها على وجنتها وأنا أسألها: أكلُّ هذا من أجل رؤية الطير؟!

فهزَّت رأسها وقالت: لا، إن الطير مجرَّد بُشرى بما هو آتٍ.

- وما الذي سيأتي يا أمي؟

اتَّسعت ابتسامتها وهي تنظر لي وقالت: عائدٌ سيعود.

نظرتُ لها غير مصدقة، وقلت: ليته يعود يا أمي، فما من رجلٍ مثل عائد.

ربتَتْ على يدي وهي تقول بثقةٍ: بل هو عائدٌ، والليلة.. لقد رأيتُه.

قبل أن أردَّ، سمعنا طرقًا بالباب.. توجهتُ إلى الباب وأنا أشعر بالخوف، فربَّما يكون الطارق أحد رجال العمدة.. اقتربتُ من الباب، وألصقتُ أذني وأنا أسأل بصوتٍ مرتجفٍ: من بالباب؟

فسمعت أحدهم يقول: افتحي الباب يا عليا، أنا عائدٌ.

لم أصدِّق أذني، ففتحت الباب بحذرٍ ونظرت للطارق،

فإذا به ملثمٌ، فقلتُ وأنا أنظر له من خلف الباب:

اكشف عن وجهكَ.

أزاح اللثام..

فأطلَّ وجه عائد، فأشرعتُ له الباب، وأشرتُ له تجاه أمي، فجرى إليها، فاحتضنته وقالت: لقد رأيتُ الطير في الصباح، ثم رأيت وجهكَ، فعلمت أنكَ عائدٌ. لديَّ أملٌ أن أرى يومًا "راشد"، لن أبرح مكاني حتى أرى بُشراه.

سلامٌ على الراحلين، والبُعد يقتلُهم..

سلامٌ على الضاحكين، والألمُ يخنقُهم..

سلامٌ على الأوفياء، في عهد الخائنين..

وسلامٌ على الشُّرفاء.. سلامٌ على الأنقياء.. سلامٌ على كلِّ من مرَّ بقلبي وترك السلام.

تركتُ أمي أمام فتحة السُّور، ودخلت لأعدَّ الطعام لعائد.. لكنِّي بعدما رجعت وجدتُه قد مضى، فسألت أمي عن مكانه، فنظرَتْ من الفتحة وقالت: هناك، يبذرُ البذور.

خبطتُ على صدري خوفًا عليه وقلت: أوَلم يكتفِ؟ سيقبضون عليه مرةً أخرى.

ابتسمت أمي ولم تردَّ، فارتديتُ حذائي وخرجت باحثةً عنه. كانت ليلةً حالكةً..

القمر هجر السماء، ويبدو أنه لن يعود.. لا أثر لعائد بأيِّ مكانٍ، وأخيرًا قررت أن أنزل الأرض، لكنِّي أوجست خيفةً من الذئب، وليس معي شيءٌ أنير به الطريق. نظرتُ إلى السماء فرأيت القمر يشقُّ الظلام ويضيء لي الأرض، فتوغلتُ حتى سمعتُ صوت الطيور، فأدركت أن "عائد" قريبٌ مني، لكنَّ بحثي باء بالفشل، ومن أرضٍ لأخرى وأنا أفتش دون جدوى، وكلما نزلت بأرضٍ سمعتُ صوت الطيور، لكنْ يبدو أني لستُ وحدي من سَمعها.. فبعد قليلٍ ومع انتصاف الليل، سمعتُ صوت العربات تجرُّها الخيول، ونباح الكلاب في كلِّ مكانٍ.

اختفى القمر وتدثَّرت بالظلام، وعدت لبيتي.

في الصباح سألتُ أمي إن كانت رأت "عائد" ليلة أمس، فأجابت مبتسمةً: إنه دائمًا موجودٌ.

نزلت الحقل وأنا حائرةٌ. الطيور في كلِّ مكانٍ، وكلُّ القرية تتحدث عن ذلك، وبعدما قابلت معاون وفجر، سألتني الأخيرة عن سرِّ شرودي، فأجبتها أني رأيت "عائد" بالأمس، فضحكَتْ، ثم بكَتْ، ولم أفهم سرَّ بكائها، لكن معاون قال لي: تعالي معي يا علياء..

فصاحَتْ به فجر: اتركها وشأنها.

لم أفهم شيئًا من حديثهما، لكن بعد قليلٍ جاء الخفرُ يطلبون الضَّريبة، فقال معاون: سندفع لاحقًا.

لكني صحتُ بهم: لن أدفع أبدًا.

توجَّه شيخ الخفر ناحيتي، وأخذ يُحملق بي وهو يسأل

فجر: أليسَتْ هذه علياء؟

رددتُ نيابةً عنها وقلت: بلى إنه أنا.

فأمسكني من يدي يجرُّني وهو يصيح بمَن معه: هذه هي من نثرت البذور ليلًا، اقبضوا عليها.

فصرختُ بهم: أيها الحمقى، عائدٌ رجع، وهو مَن فعلها.

فضحك شيخ الخفر ومَن معه، وسألني وهو يقترب بسَحنته العفِنة من وجهي: وهل يعود الموتى؟!

أجبته: نعم، يعودون في قلب كلِّ شابٍّ؛ ليشعلوا النار في بيوتكم النَّجسة.. ليطهِّروا الأرض من أموالكم الحرام.. ليثأروا لدماءٍ طاهرةٍ سالت حقدًا من أنفسكم. يعودون ليعود الطير يملأ السَّماء، وتصدح البلابل بالغِناء..

يعودون ليُطفئوا نار كلِّ أمٍّ تطلُّ من خلف نافذتها تنتظر العائد الذي لن يعود.

شدَّني شيخ الخفر ومَن معه بقوةٍ، وحاولت بكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ التملُّص منهم..

أمسكتْ بي فجر وأخوها، وظلّا هكذا ما بين شدٍّ وجذبٍ، حتى وقعت مغشيًّا عليَّ.. أو هكذا ظننتُ.. فعندما رأيتُ "راشد" يبتسم، علمتُ أنَّها النهاية، ولكنْ مرحى بنهايةٍ تجمعني به.

استيقظتُ فإذا أنا بجوار أمي أنظر للفتحة التي بالسُّور فأرى من خلالها العالم.. فرأيتُ "معاون" يزرع الأرض، و"فجر" تنثر البُذور، والجيران وقفوا أمام العُمدة بالفئوس، حتى أخرجوه من القرية عاريًا، ورأيت العيد يطلُّ بألوان قوس قزحٍ ليملأ الأرض فرحًا، بينما الطيور تحلّق في سماءٍ لا تغيب عنها الشمسُ.

شباكُ التَّذاكر

التَذكرةُ الثالثةُ

حَنـان

بقلم: د/ أمنية شفيق

أصبحَتْ

عادتها كلَّ ليلةٍ عندما تلفُّ الوَحدة والسكون جُدران المنزل، ولا تجد السيدةُ السبعينية غير مَخدعِها لتستأنس به، أن تجلس داخله، وبجانبها الرَّاديو تُديره على إذاعة القرآن الكريم، ليكتمل "الونس"، ثم تُمسك بهاتفها الذَّكي، وتقلّب في صفحات التَّواصل الاجتماعي؛ لتظلَّ على خبرٍ بالدُّنيا التي هجرَتْها بحُكم العمر وقِلة الحركة.

لا تهتمُّ بأن تكتب شيئًا على صفحتها؛ فتخضع لهوَس انتظار الإعجابات، ولا تجتذبها حرِّية التعليق التي يُمارسها الجميع على أيِّ خبرٍ، حتى لو كان لا يخصُّهم من قريبٍ أو بعيدٍ.. هي فقط تُشاهد وتتأمَّل.. ولولا أن أبناءها المُسافرين خارج البِلاد يريدون التَّواصل معها بسهولةٍ عبر شبكات التواصُل الاجتماعي، لما فكرت يومًا في استخدام هاتفٍ ذكيٍّ.

في تلك الليلة، كانت كلُّ الأخبار التي تتصدَّر صفحات مواقع التواصُل الاجتماعي، تتحدَّث عن الحادثة التي وقعت للفتاة الشَّابة التي لم تُكمل العشرين من عُمرها..

وما بين ما يتداولُه الناس من الحزن عليها والفُضول لمعرفة ما وراءَ الحادثة، تركت السيدة مُنى الهاتف من يدها وأسقطته في حِجْرها، بعدما هاجمتها الذِّكريات البعيدة كعادتها الدَّائمة .

معها، وعادت بالزَّمن إلى الوراء خمسين سنة..

هذه الليلة، تذكرَتْ صديقتها وجارتها حنان، فمرَّت أمامها صورتُها.. كانت خفيفة الظِّل، وحُلوة الصحبة..

وبقيت لهما معًا ومع اثنتين أخريين من الصَّديقات، الكثير من الذِّكريات الحُلوة.ابتسمت السيدة مُنى وتذكَّرت أيَّام الصبا، عندما كنَّ يسرن في

طريقهنَّ لمدرسة المُعلمات، ويجدن "أفيش" لفيلمٍ من أفلام يوسف شعبان، فتشير إليه حنان بلهفةٍ، وتعلّق: "چو حبيبي"، فتضحك الفتيات عليها ويقلن لها "حبيبُ مَن أيتها البَلها! إنه متزوجٌ من جميلة الجميلات ليلى طاهر".

فتقول في إصرارٍ: "وما لي وليلى طاهر وجمالها! المهم أنني معجبةٌ به"، فتضحك الفتيات ويُكملن السَّير في مرحٍ.

في ذاك الزَّمان، سكنت حنان في بنايةٍ تملكها السيدة أمُّ حسين، كانت مجاورةً للبناية التي تسكن فيها مُنى..

حيٌّ شعبيٌّ، الجميع فيه يعرفون بعضهم البعض، ويتشاركون داخله حياتهم البسيطة.

اعتادت الفتياتُ أن يجتمعن للمُذاكرة في بيت حنان، وتستقبلهنَّ عبير أختها الصُّغرى بالشاي والطعام، فكنَّ يتضاحكن معها ويسألنها: ماذا أعددتِ لنا اليوم يا عبير؟

فتارةً كانت تعدُّ الكشري المصري، وتارةً المسقعة الحارقة، وفي الشتاء العدس اللذيذ.

كانت عبير فائقة الجمال حقًّا كنجمات السِّينما في ذلك الوقت، اللائي كنَّ يتميزن فيه بالجمال الطبيعي الربَّاني، لكنها لم تستكمل تعليمها بسبب جمالها، الذي جعلها تكتفي بقيمتها كفتاةٍ جميلةٍ ولا تهتمُّ بالتعليم، كما تسبَّب بخوف أهلها الشديد عليها.

وقديمًا كان هناك معتقدٌ عند بعض الناس، أن تعليم البنت يُفسدها ويُعرضها للخطر، كما أن البنت الجميلة ليس لها إلا الزَّواج.

أما حنان وصديقاتها فقد أنهين الدِّراسة، وتخرجن من مدرسة المُعلمات، ثم تقابلن ذات مرةٍ في بيت مُنى، ولاحظت الفتيات وجوم حنان وحُزنها، فسألنها عمَّا أصابها!

فأجابت بحزنٍ: سننتقل من السَّكن، ومن المحتمل أن نترك المنطقة بأكملها..

- ولِمَ قد يحدث هذا؟

أخبرتهنَّ بانكسارٍ: كان أبي يصلِّي العشاء في المسجد، وقابله جارنا الحاجُّ أحمد أبو ممدوح، وقال له: إن سُمعتك في الحيِّ جيدةٌ؛ لذلك وجب عليَّ أن أُخبرك

أنني رأيت ابنتك الصُّغرى عبير وأنا خارجٌ من المترو تتمشَّى مع الولد الذي يسكن أمامكم، ابن أبو عادل، وأنتَ تعرف أنه ولدٌ فلتان ويتسلَّى فقلت: أنبِّهك..

عاد أبي للبيت ليلتها يجرُّ قدميه التي عجزت عن حمله. بدا عليه الحُزن ووجهه كان مسودًّا، ثم أخبر أمي بما حدث، وأنه قرَّر رحيلنا عن الحيِّ؛ فهو لن يستطيع المكوث في المكان بعد الآن، ولا أنّ يرفع رأسه فيه..

بكَيْنا وتوسَّلنا إليه ألَّا نرحل ونهجر بيتنا وحيَّنا وذكرياتنا، لكنه صمَّم على تنفيذ فرمانه، وبدأ يبحث لنا عن سكنٍ آخر.

شعرن بالدَّهشة والاستنكار، وقالت مُنى: معقولٌ! تتركوا حيًّا مثل حيِّنا، وقد مكثتم فيه عُمركم بتلك السُّهولة!

- عبير هي السبب. تعلمون أن أبي يخشى عليها كثيرًا، ويحاول الحفاظ عليها وعلى سُمعتها حتى تتزوَّج.. يخشى أن تكون القصة مُثارة على الألسنة ونحن في غفلةٍ.

ساد صمتٌ عاجزٌ بينهن ثم، قالت إحداهن: على أية حالٍ، دعونا نتقابل هنا عند مُنى إلى أن تنتقل حنان وتُخبرنا بعنوانها الجديد لنزورها باستمرارٍ.

اتفقن على ما قيل، وذهبت كلٌّ منهن إلى بيتها، وفي المرَّة التالية عند اجتماعهنَّ، أخبرتهن حنان بأن أباها قد وجد سكنًا، وأعطتهنَّ العنوان بالتفصيل.. وكيف يذهبن إلى هناك، وماذا يركبن؛ فقد كانت المنطقة جديدةً، نائيةً وغير مأهولةٍ بالسكان.

لم يخفَ عليهن حُزن حنان؛ فقد وُلدت ونشأت وشبَّت وعاشت أجمل سنوات عُمرها في المنطقة، ولكنها لم تكن تملك من الأمر شيئًا لتمنع أختها عمَّا فعلت؛ فقد أخفت عنها عَلاقتها بهذا الجار، ثم بعد ذلك لم يكن لها رأيٌ فيما قرَّر أبوها بعدُ.

اتفقت مُنى وصديقتاها على زيارة حنان، فتتبَّعن تعليماتها حتى وصلن لبيتها الجديد. استقبلتهن حنان بفرحٍ وبضحكتها التي كانت تزين وجهها دائمًا، وقد استقرُّوا الآن واستسلمت لوضعهم الجديد، كما استقبلتهنَّ عبير الجميلة وقدَّمت لهن الشاي كعادتها، وفي نهاية الزِّيارة طلبت الصديقات من حنان أن تردَّ الزيارة، ولكنها لم تفعل؛ فقررن بعد فترةٍ زيارتها مرةً أخرى للاطمئنان عليها.

عندما فتحت لهنَّ الباب تفاجأن بهيئتها؛ فقد بدَتْ شاحبة الوجه، يكسو قسماته الاكتئاب والحُزن.. بدت ملابسها غير مُهندمةٍ وغير نظيفةٍ، كأنها تلبسها منذ أسابيع ولم تخلعها.. عقصت شعرها كعكةً غير متسقةٍ، تتطاير منها خُصل شعرٍ في غير انتظامٍ.

لم تكن تلك طبيعة حنان؛ فقد كانت تهتمُّ بملبسها ونظافتها وأناقتها، وتتفنَّن في تسريح شعرها وجعله مفرودًا كله أو جزءًا منه. لم تكن حنان في جمال أختها عبير، ولكنها كانت تهتمُّ بنفسها وتتميز برُوحها المرحة.

قطعت إحدى الصَّديقات صمت الدَّهشة، وبادرت حنان بسؤالها عمَّا حدث لتبدو بمثل هذه الكآبة والحُزن؟

- عبير أختي خُطبت.

- وما الجديد؟ لقد خُطبت من قبل لابن عمكِ، وعندما قلنا لكِ أنتِ أكبر منها فكيف توافقون على خِطبتها قبلكِ، أجبتِنا وقتها أنه لا مشكلة؛ فهي لم تستكمل تعليمها، والعريس ابن عمِّكما، وأراد أبوكِ تزويجها بعد الخِطبة مباشرةً، ولكنها تمرَّدت عليه وفسخت الخِطبة.. فما الذي تغيَّر هذه المرة كي تحزني بهذا الشَّكل من خِطبتها؟

- الأمر مختلفٌ هذه المرة..

- كيف؟

- العريس هو السِّمسار الذي أحضر لنا هذه الشقة لنستأجرها، وهو مسيطرٌ على المنطقة بأكملها.. يمتلك فيها أراضي وعمارات كثيرةً، وعنده من المال الوفير والسَّيارات الكثير.. في إحدى المرَّات رأى "عبير"، وعلى الفور طلب خِطبتها، ووافق أبي دون أيِّ ترددٍ، وأمي سعيدةٌ به، وعبير سعيدةٌ هي الأخرى.

- وأين المشكلة؟ ما زِلْنا لا نفهم يا حنان!

- المشكلة أنه فرض عليها ألَّا تخرج إلى الشارع أبدًا، وألَّا يرى خيالها مخلوقٌ.. حتى الباب لا يعرف طولها.. فأضطرُّ أنا للنزول لشراء كلِّ

شيءٍ.. كل متطلَّبات الأسرة والبيت.. التي زادت بعد الخِطبة، والمنطقة كما ترون لا توجد بها خِدمات كافيةٌ، ولا يتوفر بها كل شيءٍ، فأظلُّ بالساعات خارج المنزل، أقطع المسافات للتسوُّق، وبعد كلِّ هذا أعود للبيت أنظفُه وأعدُّ الطعام مع أمي، حتى يأتي العريس المحمَّل بالهدايا، ليأكل ويقضي وقته مع العروس، التي يجب أن تبقى مرتاحةً وتتهيأ لقدومه.

كانت حنان تتكلم في مرارةٍ وحسرةٍ، ولم تملك الصديقات إلَّا أن يهونَّ عليها الأمر، وحاولن إخراجها من حُزنها بالنميمة والضَّحكات..

حملت حنان في داخلها الكثير من القهر الذي لم تبُح به للصديقات. عبير هي أختها، وتحبُّها، ولكنها تسببت في كلِّ ما قاسته من الحياة..

عندما تقدَّم ابن عمها لخِطبة عبير، كانت تعتقد أنه جاء ليخطبها، وخفق قلبها بالسَّعادة، ولكنْ فوجئت بأنه يخطب "عبير"، ووافق أبوها.. وليت "عبير" حافظت على ابن العمِّ، بل قطعت السُّبل بين العائلتين.. وها هو الخاطب الثَّري الذي يبدو أنه جاء ليقلب حياتهم؛ فقد أصبحت حنان تدور في ساقيةٍ لخدمته هو وعروسه، حتى في أضعف حالاتها الجسدية والنفسيَّة..

فقد أتت الأختين العادة الشَّهرية في نفس التوقيت، وبينما كانت حنان تُعاني من آلام ظهرها وتقلُّصاتٍ شديدةٍ ببطنها، وعجزَتْ عن تخفيف ألمها أقراص الأسبرين الكثيرة التي تناولتْها، كانت عبير تسترخي في سريرها، تُناولها أمها كوب مشروبٍ دافئٍ، وتأخذ كوب مشروبٍ آخر فارغًا كانت قد تناولته لتوِّها، وتملأ صحن الفاكهة لها، فهي عروسٌ يجب أن ترتاح ولا يبدو عليها أثرٌ من الشحوب أو الإرهاق؛ حتى تستطيع الجلوس مع العريس والتَّرويح عنه بالكلام والضَّحكات..

أمَّا حنان، فهي ترى كلَّ البنات تأتيهن العادة ويمارسن حياتهنَّ بشكلٍ طبيعيٍّ، إلَّا هي.. وقد حَدثَ أن نفدت القهوة والسُكر، كما أنهم يحتاجون لحمًا لإعداد الطعام للعريس ، فمَن سيُحضر تلك الطَّلبات سوى حنان؟ فنزلت وهي تُصارع آلامها، وركبت الميكروباص، وأخذت تمشي مترنحةً حتى وصلت لمحلِّ الجزارة المعتادين عليه والبعيد عن البيت. عندما وصلت للمحلِّ سقطت أمامه شِبه مغشيٍّ عليها.. تلقَّفها الناس وأجلسوها في المحلِّ، ونثر الجزَّار الماء على وجهها، وأحضر صبيُّه لها كوبًا من عصير القصب من محلِّ العصير المجاور.

شربت العصير وهي تحبس دُموعها حتى تحجَّرتْ ولم تنبس بكلمةٍ واحدةٍ، ولم تفهم من هَمْهمات الناس حولها حرفًا.. كانت تسيطر على ذهنها صورة عبير وهي جالسةً مع العريس سعيدةً ومُوردَّة الخدين والشفاه.

اشترت اللحم وباقي الطَّلبات وعادت للمنزل في صمتٍ، تحمل في قلبها كرهًا لنفسها وضعفها وقِلة حيلتها.. تحمل حقدًا وقهرًا تجاه الدُّنيا كلِّها.

صمتت ولم يعلم إنسانٌ بما حدث لها.

مرَّت زيارة الصديقات لحنان، وبعدها بفترةٍ ليست بالطويلة، كان ذلك النهار الذي أيقظتْ فيه أم مُنى ابنتها من نومها صارخةً: "قومي يا مُنى بسرعة.. هناك مصيبةٌ حدثت"..

عندما سمعت مُنى كلمة "مصيبة" قامت من السرير مرةً واحدةً فزعةً، وسألت عمَّا حدث، فأخبرتها أمُّها أن جارتهم أم حسين تقول إن حنان صديقتكِ قد تُوفيت،

وتريدكِ أن تذهبي معها الآن إلى هناك. صرخت مُنى غير مصدقةٍ، وأسرعَتْ ترتدي ما وجدته عندها من ملابس سوداء،

ونزلت حيثُ كانت بانتظارها أم حسين، التي أوقفت سيارة أجرةٍ وركبت معها حنان، فاستفسرت عمَّا حدث.

قالت أمُّ حسين: اتصلت بي عبير أخت حنان، وقالت إنها قد تُوفيت، وهي موجودةٌ الآن بمشرحة زينهم.

لم تصدق مُنى ما سمعت، وظنت أنها لم تصحُ بعد من

نومها؛ فأخذت تُمسك يد أم حسين لتتأكد من وجودها بجانبها، ثم تحسَّست وجهها؛ فوجدت الدموع قد أغرقته، وظلت دموعها مستمرةً في انهمارها دون أن تستطيع الإمساك بها.

طوال الرِّحلة إلى المشرحة.. كان شبح حنان الكئيب منذُ آخر زيارةٍ لها، يقف أمام عيني مُنى.. يذرف الدموع الصامتة من عينين مقهورتين؛ ليزيد من صدمة وفجيعة مُنى، حتى شارفت السيارة على الوصول، فربَّتت أم حسين على ظهر مُنى في حنانٍ وقالت: كُفي عن البكاء يا ابنتي.. سينفجر قلبك.

حاولت أن تتمالك نفسها، وعندما وصلوا إلى المشرحة، قُبض قلبها، وكأنها اشتمَّت رائحة صديقتها مختلطةً برائحة الموتى. كان هناك العديد من النسوة يتجمعن أمام المشرحة.. يولولن ويبكين. بحثت بنظرها عن عبير فلم تجدها، ولكنَّها وجدت أم حنان، فأسرعت إليها واحتضنتها باكيةً، وقالت الأم وسط بكائها: راحت حبيبتك يا مُنى.. راحت ولن تعود!

- ما الذي حدث يا خالتي؟

- استيقظنا باكرًا، وأعددتُ طعام الإفطار، ودعوتُها لتفطر معنا، فنظرت إليَّ نظرةً زائغةً وقالت: ليس الآن. فيما بعدُ سأفطر.

بعد الظهر، دخلتُ المطبخ أعدُّ طعام الغداء للحاجّ علاء خطيب عبير، وأعطيتُ حنان صينية الأرز حتى تنقّيه، فجلست على السفرة تنقّي الأرز بيدٍ، ووضعت يدها الأخرى على فمها، فقلتُ لها: لمَ لمّ تفطري يا ابنتي حتى الآن؟

لم ترد عليَّ.. ثم فجأةً أطاحت بصينية الأرز ووقعت على الأرض، وخرجت الرغوة من فمها، وعندما اقتربتُ منها اشتممت رائحة المبيد الحشريّ؛ فصرختُ.. وأرسلت أستدعي أباها من عمله، واستدعى الجيرانُ الإسعاف الذي نقلها لمستشفى الدمرداش.. وبمُجرد الكشف عليها قالوا: لقد فارقت الحياة.. اذهبوا بها لمشرحة زينهم..

تلعثمت السيدةُ باكيةً وقالت: شربت السُّم وقتلت نفسها، ولم نستطع إنقاذها!

اشتدَّ بكاء مُنى والأم، حتى انتهى الأب وبقية شباب

العائلة من إجراءات التصريح بالدَّفن وخرجوا من المشرحة، ثم استعدَّ الجميع للذَّهاب بجثة حنان لتُدفن في مقابر العائلة في إحدى القرى البعيدة عن القاهرة، فلما علمت أم حسين بذلك جذبت مُنى وهمست لها بأنَّ المشوار بعيد، ولن يستطيعا الذَّهاب إلى هناك والعودة بمفردهما؛ لذلك يجب عليهما أن يعودا للمنزل، فقدَّمتا العزاء، وسلَّمتا على أم حنان، وشدَّتا من أزرها، ثم عادتا إلى حيهما مرةً أخرى.

دارت الأسئلة نفسها برأس السيدة مُنى، كما دارت برأسها منذ خمسين عامًا..

أسئلةٌ لم تجد جوابها حينها.. وحتى الآن..

لِمَ فعلتِ فعلتكِ يا حنان؟

هل كنتِ تغارين من أختك لأنها أجمل منكِ؟ أم لأنها خُطبت قبلكِ ولرجل ميسور الحال كاد ليقدِّم لها لبن العصفور كما يقولون؟

أم قتلتِ نفسكِ لأن أهلكِ ظلموكِ، ولم تتحملي تمييز أختكِ عليكِ؟

نعم، إن أختكِ قد تسببت في تركك لمكانك وبيتك الذي تحبينه، كما تسببَتْ في إجهادك وتعبكِ بعد ذلك إرضاءً لخطيبها، ولكن.. هل كان يستحقُّ ذلك أن تقتلي نفسكِ؟!

هل فقدتِ إيمانك بهذه السرعة؟!

لو كنتِ صبرتِ قليلًا حتى يصلكِ جواب التعيين.. ألم يكن هناك احتمالٌ أن تتغير حياتك؟!

لِمَ هانت عليك حياتكِ يا حبيبتي؟ لماذا؟!

سقطت دموع السيدة مُنى على هاتفها المستقرِّ في حِجرها، فانتزعت نفسها من الذِّكريات، وسحبت منديلًا بجانبها، ومسحت الشاشة بسرعةٍ حتى لا تتلف، ففُتحت من جديد أمامها صورة الفتاة العشرينيَّة التي تتناقل صفحات الأخبار تفاصيل انتحارها.. تأمَّلت صورتها.. لم تكن تُشبه حنان، بل تُشبه عبير في جمالها..

يقولون إنَّها قتلت نفسها بتلك الحبَّة التي يقتل بها الجميع أنفسهم في هذه الآونة؛ وذلك لأن سُمعتها طالها السوء والخزي بسبب شابٍّ حصل على صورها الخاصة بطريقةٍ ما، ونشرها بين أهل قريتها، متسببًا

لها بفضيحةٍ كبرى لم تستطع معها التعايش بينهم، ولم يُدركها أهلها قبلَ قتلها نفسَها، بل إن الشَّائعات تحوم حول أنهم مَن دفعوها لقتل نفسها بدلًا من أن يقتلوها بأنفسهم..

"ما أهونَ حياة الإنسان عليه أمام قسوة الأحباب!"..

(ردَّدت السيدة مُنى لنفسها في همسٍ، واستأنفت قراءة الخبر)..

"عاشت الفتاة وأهلها فترة عصيبة بين أهل القرية وكلام الناس الذي ينهشُ في سُمعتهم"..

لم تكن السيدة مُنى تفهم دعاء أم حنان وقتها في المشرحة، ولكنَّها فهمته الآن عند قراءتها هذا الخبر!

فقد كانت أم حنان تدعو على مَن تسبَّب فيما حدث لهم ولابنتها!

رحمكِ اللّه يا أم حنان.. تبرأتِ من مسئوليتكِ وألقيتها كلِّها على أحدهم.

أعلن الراديو قرآن صلاة الفجر، فتركت السيدة هاتفها جانبًا، وقامت تتوضأ لتلحق ركعتي قيام الليل قبل أن يؤذَّن للصلاة.

التذكرةُ الرابعةُ

ما وَراءَ الظِّلالِ

بقلم: أماني الصغير

ضوءٌ قويٌّ يغشى البصر..
أصواتٌ عنيفةٌ تزلزل القلب..
إدراكٌ مشلولٌ.. وإعصارٌ يضرب الجسد..
ثم.. سكونٌ كالذي يلي العاصفة..
والظلامُ.. الظلامُ وكأنه دخانٌ يتخلل الروح شيئًا فشيئًا..
مضى وقتٌ مجهولٌ لا يعرف أطال أم قصُر، حتى بدأ يشعر..
الرمالُ باردةٌ.. تلك التي تكسو الأرض حيث يرقد..
هذا الدفءُ.. لابدَّ أنه الدماء التي وجدت لها سبلًا شتَّى لتغادر جسمه..
ذاك الصوت؟!
انفرجت جفونه بصعوبةٍ ليميز بعسرٍ بالغٍ إطار سيارته يلُف في الهواء..
فوقه! أما السيارة نفسها فجاثمةٌ إلى جواره مهشمةٌ منبعجة وقد استقرتْ على أحد جانبيها..
لبرهةٍ لم يستوعب.. أكان هذا حادثًا شنيعًا؟!
أحدث هذا له؟!
غريبٌ.. لا يشعر بآلامٍ قوية.. بل لا يشعر فعليًا بمعظم جسده!
مع عودة المزيد من إدراكه وعجزه عن الحركة، بدأ يشعرُ بالفاجعة..
إنه ببساطةٍ يموت!
انتابه الهلع، واعتصره بغتةً ألمٌ آخر.. ألم رُوحه وقلبه..
زوجته الحبيبة.. ابنته الغالية.. سيرحل عن الدُّنيا دون وداعهما..
سيتركهما للحياة القاسية تتحملان وحدَهما ذنب ما اقترفته يداه..
اغرورقتْ عيناه بدمعٍ متحجرٍ..

لم يُمهله قدره لتصحيح ما تغافل عنه طويلًا..
كان على وشكِ فعلِ ذلك.. كان على بُعد خطوةٍ..
سال الدمع ملتهبًا يحرق الرُّوح ويمتزج بدماء جسدٍ يحتضر..
شخصَ بصره للسماء التي طفقت ظُلمتها تتقهقر أمام ضوء الفجر الوليد،
تمامًا كما يتقهقر وعيه أمام ظلمةٍ أقوى..
أحقًّا سيموت الآن؟!
ربَّما لا.. ربَّما لم تحن ساعته..
لمَ عليه انتظار موتٍ لم يُكتب عليه بعدُ؟!..
من أجل أسرته سيتشبَّث بالحياة حتى الرمق الأخير..
اعتصر عينيه ينفضُ عنهما الدمع.. واعتصر معهما إرادته..
حاول التحرُّك فبقيت أطرافه على عِنادها له..
صرخ بقوةٍ واستنفر كلَّ ما لديه من عزيمةٍ، فتحرك!
بعدم تصديقٍ صرخ ثانيةً واستمرَّ في محاولاته حتى نهض مترنحًا..
سيعود للطريق ويستنجد بأحدهم علّه يغيثه..
هذا ما قرره بعزمٍ لم ينلّ منه علمه بأن الأمل واهٍ.. بل شبه معدومٍ في
هذا الطريق الصحراويِّ وهذا الوقت..
مشى طويلًا بخطواته المتهالكة، تُفضي به الرمال إلى
المزيد منها..
لفحه زفير الرياح وحرّقه لهيب الشمس التي أتمَّت شروقها وتصدرت
صفحة السماء..
عجيبٌ أن قذفته تلك الشَّاحنة التي ارتطمت بسيارته إلى هذا العُمق من
الصحراء!

لكن عجبه الحقيقيَّ كان وهو يرى الصخور الوعرة وهذا الجبل الشَّامخ..
توقف حائرًا.. لكنه لم يلبث أن تقدَّم نحوها يلتمس الظلَّ والتقاط الأنفاس..
مع اقترابه، تلفَّت حوله في وجلٍ لم يدرِ مصدره..
ما بال الظلال كثيفةً كئيبةً وكأن ضوء الشمس محرمٌ عليه المرور ها هنا!
ما بال لفحات الهواء أصبحت باردةً لا تفتأ تصدر أنينًا مع مرورها بين ثنايا الصخور!
هل يسمع بالفعل صوت ضجيجٍ؟!
أرهف سمعه فلم يمرَّ عبر أذنيه سوى الصمت..
لا يسمع شيئًا.. لكنه يشعر به!
وجد نفسه يتوغل أكثر بين الصُّخور وممراتها، وكأن شيئًا ما يجذبه نحو بقعةٍ بعينها..
ممرٌّ صخري خفي، دلفَ إليه فرأى الفجوة الضخمة..
أهذا كهفٌ؟!
توقف في رهبةٍ.. من هنا يصدر ذلك الضجيج العجيب..
الظلام حالكٌ، لكنه رأى ذلك الشيء؛ فاتسعت عيناه عن آخرهما..
وكأنه ظلٌّ يتحرك وتتغير هيئته في كلِّ لحظة.. ظلٌّ سواده أشد حُلكةً من الظلام ذاته!
انتفض والضجيج يتحول إلى صوتٍ عميقٍ دوَّى بين تلافيف مُخه؛ أحدهم أخطأ ووطئ حيث لا ينبغي له..
ثم تباطأ الصوت وازداد عمقًا وهو يكمل؛ وهو لا يعلم ماذا سيُكلفه خطؤه.

شلَّته الرهبة وتمكنت من عقله، وطفق قلبه يخفق كالطَّبل..

أتراه يهذي؟!

تعالى الضجيج إلى حدٍّ مؤلم، فأمسك رأسه بكلتا يديه، قبل أن يتردد الصوتُ داخل عقله ثانيةً: لا تبتئس كثيرًا.. أن تصير جزءًا من ذاتي العظيمة لهو شرفٌ لك.

خُيل إليه أن ذاك الشيء يتمدد ويزداد كثافةً وسوادًا، وقبل حتى أن يستوعب الأمر، انقضَّ عليه وأحاطه بلمح البصر..

هوى أرضًا.. وثقلٌ رهيب يجثم على صدره، فخرجت أنفاسه ولم تعُد..

شعر بروحه تتسرب منه، لكنَّه قاوم بإصرار..

لا يُمكنه أن يستسلم الآن.. أسرته الصغيرة تحتاجه؛ ومن أجلها سيُحارب ولو حتى الموت ذاته..

تحركت ذراعاه تضرب ما حوله في كلِّ اتجاهٍ، فأتاه الصوت المخيف يقول مستهزئًا: لمَ المُقاومة؟!.. ميتٌ أنت في كل حالٍ.. ألم ترَ تهشُّك جسدك؟!

هتف من أعماقه: كلَّا.. عليَّ أن أبقى.. عليَّ أن أبقى من أجلهم.

لم يخرج لهتافه صوتٌ، ولم يكفَّ عن محاولاته المستميتة للخلاص.. لا يعرف أستطاع التقاط أنفاسه، أم خُيل له؟ لكنه عاد يميز الصوت همسًا كالفحيح: لا بأس إن شعرتَ بالخوف واليأس.. لا بأس إن شعرتَ بالندم.. أحباؤك الذين تريد البقاء لأجلهم سيتمنَّون موتك إن علموا بفعلتك، بل إن الموت سيكون أهون عليك من أن ترى نفسك مجردًا من احترامهم وتقديرهم.

اقترنت الكلمات في عقله بصورة زوجته تنظر إليه في ازدراءٍ، وابنته تبكي في حزنٍ.. بوجه شريكه مزينًا بابتسامة ظفرٍ وشماتةٍ..

ضعفت مقاومته ووهنت إرادته، لكنه هتف: لمْ أفعل شيئًا.. ذاك الوغد، هو مَن فعل.. لم أكن على علمٍ حتى بما يقوم به في الخفاء.

قهقه الصوت: بل كنتَ تعلم.. أو فلنقل، تشكُّ في شريكك شكًّا حدَّ اليقين.. لكنك تغافلت عمدًا، وقد أعمتك الأرباح التي تجنيها دون توقفٍ.. لم تبحث خلفه؛ لخوفك من أن تجد ما يجعلك تواجه نفسك..

ثم بهمسٍ يقشعر له البدن أردف: أنت لا تقلُّ حقارةً عنه.

تراءت المواقف أمام عينيه تُذكره وتملأ حلقه بمرارة الندم، حتى إنكاره أتى متخاذلًا كهتافه: غير صحيحٍ.. كلُّ ما تقوله غير صحيحٍ.

زاد انسحاق صدره بغتةً، والصوت يقول بقسوةٍ: ولوج العقول لعبتي.. أنا في عقلك يا هذا، وأقول ما تُخفيه نفسك في خباياه.

شعر بذلك الشيء ينفصل عنه ويتجسد كظلٍّ يتموج أمامه بألف هيئةٍ وشكلٍ، بينما يتردد صوته بعمق بئرٍ سحيقة: اغرق في ندمك ويأسك.. تمنَّ الموت.. هو خيرٌ لك.

أغمض عينيه لاهثًا وخلص مع نفسه نجيًّا..

ربَّما يستحق عقابًا كالموت، لكنه لم يكن حقيرًا أبدًا..

عاوده الندم كغصة علقمٍ في حلقه.. وكثقل جبلٍ في قلبه.. ليته لم يُخمد صوت ضميره حين علم أن قدميه تغوصان في وحلٍ، حتى وإن لم تتلطَّخ به يداه..

ذاك الشيء الشَّنيع الذي يحوم حوله.. إنه يشعر بظفره.. يشعر باقترابه منه.. وهو لم تعُدْ فيه قوةٌ ليحرك ساكنًا، أو ليفوه بحرفٍ.. لماذا لا يقضي عليه إذًا ويخلصه من عذابه؟!.. ماذا ينتظر؟!..

عزاؤه الوحيد أنه سيموت وقد انتصر على نفسه.. حين رأى الحقيقة المجرَّدة قرر قلب كلّ الأمور على رءوس أصحابها، وانطلق للتنفيذ، لكن.. وآهٍ من لكن.. ها هو ذا لا يملك من أمره إلّا ما تملكه الجثة الهامدة.. ليته نجا من ذلك الحادث..

طافت بذكرياته بغتةً الشاحنة، ولحظات اندفاعها المجنون نحو سيارته.. ثم ارتطامها بها.. عجبًا.. لم تبدُ متخبطةً أو فاقدةً للسيطرة! كانت تشقُّ طريقها نحوه بإصرارٍ.. والأعجب أن سائقها قفز خارجها في اللحظة الأخيرة!

إدراكه المشلول حينها لم يُمكنه من ملاحظة أمرٍ كهذا.. أمَّا الآن فيذكر كل لحظةٍ وكل تفصيلة..

انتباه غضبٍ هادر، واستنتاجٌ أوحد يستقرُّ بعقله..

هذا الحادث دبَّره أحدهم، وهو يعلم جيدًا من يكون أحدهم هذا..حقيرٌ هو بما يكفي لفعل شيءٍ كهذا.. يتخلص منه ومن تهديده له، وإذا ما حدث وانكشف أمر فساده، فسيكون اسمه جاهزًا ليلصق به كلَّ جرائمه، وما أسهلَ الادعاء على رجلٍ ميت!..

أجل لن يضيره ذلك حينها وقد رحل، لكنَّ أسرته.. أسرته هي من ستكون الضحيَّة الحقيقية.. هي من سيضيع حقُّها وتتلوث أبد عمرها بعارٍ هي منه بريئةٌ..

الآن لا يريد من الدُّنيا سوى القبض على عُنقه واعتصار روحه اعتصارًا.. لن يموت ويتركه يهنأ بانتصاره أبدًا..

زمجر الظلُّ فجأةً وابتعد، وإن استمرَّ في حركته وتموُّجه اللانهائي.. وكلما حاول الاقتراب، ابتعد من جديد!

ماذا يحدث؟!

فجأةً أيضًا فهم.. بل مذهولًا فهم وباح عقله من فوره:

أنت لن تستطيع الظفر بي إنَّا لو تمنيتُ الموت واستسلمتُ له.. أليس كذلك؟!

توقف الظلُّ.. تمدَّد حتى ملأ الفراغ حوله كله، لكنه ظلَّ على صمته ولم يقترب..

أدرك أنه أصاب كبد الحقيقة، فغمره شعورٌ غريب، وتدافعت في ذهنه أفكارٌ أغرب.. لكن.. ربَّما تكون هذه فرصته الأخيرة..

هذا الشيء يعيقه تشبُّثه بالحياة، وهو لم يعد يريد من تلك الحياة سوى أمرٍ واحدٍ..

ميتٌ هو في كل حالٍ، لكن بإمكانه أن يجعل لتخلّيه الآن عن حياته ثمنًا..

أتاه الصوت وقد اكتسب عمقه حدَّة غضبٍ: لا تغترَّ بنفسك كثيرًا يا هذا.. حتى وإن لم أظفر بك، أستطيع أن أذيقك العذاب ألوانًا.

اعتدل بتهالكٍ واستند بظهره على شيءٍ ما لم يدرِ كُنهه.. وبينما هذا الشيء يعود لتموجاته، قال وهو يبتسم شبح ابتسامةٍ:

لا داعي لذلك.. إن كان غزو العقول لعبتك حقًّا فربما يمكننا أن .. صمت لحظةً ثم أكمل بجزمٍ: نعقد صفقة.

****

مساء نفس اليوم..

وسط سُرادق عزاءٍ مهيب، وقفت امرأةٌ شابة ترتدي السواد ونظارةً شمسيةً قاتمة، حاولت بها إخفاء حُزنها الشديد ودموعها التي تنهمر بلا توقفٍ منذ صباح اليوم..

وإلى جوارها، وقف رجلٌ طويل القامة، أشيب الشعر، وَقور الهيئة، وقد بدا واضحًا من التشابه الذي حملته ملامحه مع ملامح المرأة أنه قريبٌ من الدَّرجة الأولى..

وعلى صوت الآيات القرآنية المُرتلة، أخذ الرَّجل يتلقى العزاء عن المرأة، وهو يُتمتم ببعض العبارات الرتيبة ردًّا على عبارات العزاء الأكثر رتابةً التي ردَّدها الحضور على مسامعه واحدًا تلو الآخر.. لكن أحدهم شدَّ على يده بقوة، وعزَّاه بعباراتٍ أكثر حرارةً..

ثم انتقل بحديثه إلى المرأة، مؤكدًا أن فداحة حُزنه على الفقيد لا تقلُّ عنها، وأن الشركة أمانةٌ في يديه، حقُّها وحق ابنتها فيه محفوظٌ بلا أدنى شك..

أومأت المرأة برأسها بامتنانٍ، وقد منعتها دموعها التي ازدادت انهمارًا من التفوُّه بحرف..

غادرهما الرجل واتخذ مجلسًا، بينما شفتاه تتخذان ابتسامةً خبيثةً تناقضت بشدةٍ مع حاله منذ لحظاتٍ أمام أصحاب العزاء..

التقط نفسًا عميقًا، وتراجع في مقعده مسترخيًا وهو يحدِّث نفسه: وداعًا شريكي العزيز.. اعذرني.. أنتَ من فعلتَ هذا بنفسك.. لو بقيتَ على صمتك لما حدث كل هذا.

مرَّ عليه الوقت مملًّا، لكن تناهى إلى سمعه ما جعله يبتسم..

كانا رجلين من أقارب الفقيد، يتبادلان الحديث بما يعرفانه عن الحادث..

قال أحدهما في حزنٍ: كان حادثًا مروعًا.. لقد عُجنت السيارة تقريبًا.

غمغم رفيقُه: يا إلهي!.. رفَّقَ الله به أن فاضت رُوحه في لحظتها.

استطرد الأول بأسًى: لم يحدث هذا للأسف.. لقد وجدوا حوله الكثير من الدِّماء.. تقرير الطبيب الشرعي أفاد أن عموده الفقري قد تهشَّم، وهذا يعني أنه ظل حيًّا ينزف لفترةٍ ليست بالقصيرة، بقي خلالها حيث هو عاجزًا عن الحركة.. الله وحده أعلم إن كان حينها غائبًا عن الوعي أم واعيًا يتعذب.

تنهَّد الآخر بقوةٍ وقال: رحمه الله على أيِّ حال.

اتسعت ابتسامة الرَّجل وقام يغادر سُرادق العزاء..

الآن يمكنه القول إنه انتصر في هذه الجولة أيضًا.

****

صباح اليوم التالي..

حدَّق في الأصفاد التي تحيط معصميه غير مصدِّق، بينما يدفعه الجنديُّ بغلظةٍ داخل غرفة التحقيق بانتظار حضور وكيل النيابة..

لحظاتٌ ولَحِق به محاميه..

هتف فور رؤيته: ما الذي يحدث؟! بأي تهمةٍ يحتجزني هؤلاء؟

جلس المحامي قُبالته قائلًا: بل قل أي تُهم.

قال بنزقٍ: أوراقنا كلها سليمةٌ، تعلم ذلك.. أيًّا ما كان سبب احتجازي، جِد ثغراتك القانونية وأخرجني من هنا سريعًا.

ببرودٍ قال المحامي: هل لي أن أسألك أنا ماذا يحدث؟! الأمر خطيرٌ هذه المرة.. كيف تسرَبتْ منك بياناتٌ بهذه الحساسية والخطورة؟!

حدَّق به الرجل قائلًا باستنكار: بيانات؟! ما الذي تقصده؟

مال نحوه محاميه وقال: صباح أمس، وصلت إلى الجهات المُختصة بياناتٌ رقمية للأوراق الأصلية لصفقاتك وعلاقاتك المشبوهة، بل وأرقام حساباتك السِّرية.

فغر الرَّجل فاه غير مصدقٍ، وانعقد لسانه في حلْقه، فاستطرد المحامي بثقةٍ وهو يتراجع في مقعده: لكنْ لا تقلق.. سنحاول إثبات أن الحساب الذي أُرسلت منه البيانات وهميٌّ أو مزيف، وأن هذه البيانات لا أساس لها من الصحة.

بقي الرجل على خرسه لحظاتٍ أخرى، ثم تمتم بذهولٍ: غير ممكن.. هذه البيانات سريةٌ للغاية لا يعلمها أحدٌ غيري.

طالعه محاميه بصمتٍ، ثم تساءل ببطءٍ: وشريكك الراحل؟

هزَّ الرجل رأسه نافيًا بقوةٍ وقال: لم يكن لديه علمٌ بها.. طالعَ البيانات للمرة الأولى في غفلةٍ مني وأنا أعمل على حاسوبي ليلة الحادث، غادر بعدها المكتب غاضبًا..

ثم أردف بقسوةٍ: ولم أمهله لينقل معرفته هذه لأحد.

مطَّ المحامي شفتيه بلا اكتراث، ثم نهض قائلًا: حسنًا.. حتى الآن ما زال بإمكاننا التصرُّف، لكن دون معرفة هوية مخترق حساباتك، فستكون كلُّ جهودنا بلا جدوى.

بعصبيةٍ ردَّ: جميع حساباتي محميَّة ببرامج متقدمةٍ لا يمكن اختراقها، أُنفق عليها ثروة.. هذا الاحتمال غير وارد.

- قل لي إذًا كيف وصلت هذه البيانات إلى الشرطة؟!

انتفض الرجل في قوةٍ وارتدَّ للخلف مرتطمًا بظهر مقعده وعيناه على أقصى اتساعهما..

طالعه المحامي بدهشة..

أجل كانت عبارته عصبيةً حادة، لكن ليس إلى حدِّ رد فعلٍ كهذا..

بدهشته تلك سأله: هل أنت بخير؟

واصل الرجل تحديقه به لبرهةٍ.. لحظة تفوهه بهذه العبارة، لم يكن صوت المحامي هو ما سمعه.. ولم يكن وجهه هو ما يراه!

هزَّ رأسه بقوةٍ ينفض أوهامه، وأجابه مغمغمًا: أجل.. أقصد.. كلَّا..

ثم بعصبيةٍ شديدة أكمل: لست بخيرٍ أبدًا.. هذا المكان يثير توتري.. عليك التصرُّف وإخراجي من هنا بأقصى سرعة.

لم يعرف كيف مضى وقت التَّحقيق، وكيف صار الآن في زنزانته وحيدًا..

لم يعرف كيف له أن يسمع صوت شريكه الرَّاحل من بين شفتي محاميه، ويرى وجهه للحظة كظلٍّ يغشى وجه محدِّثه!

عجبًا.. لم يكن يومًا هش النفس، ولم يشعر يومًا أن له ضميرًا يؤنبه..

لم يطرف له جفنٌ في أي فعلٍ مشين فعله، ولم تهتز شعرةٌ في رأسه وهو يأمر بقتل شريكه بمجرد أن أحسَّ منه خطرًا على مصالحه..

ما الذي حدث له؟! يبدو أنه لم يعُد فعلًا بخير..

****

بعد أيامٍ..

مُشعث الشعر والملبس، تكوَّر في ركن زنزانته وهو يتلفتُ حوله في هلعٍ بلا انقطاع..

استطالت لحيتُه، وشحب وجهه، وفقد الكثير من وزنه..

التقى بمحاميه منذ قليلٍ.. حاول إخباره أن شريكه لم يمت، وأن أمر وفاته قد زُيف.. أخبره أنه ما زال حيًّا وأنه مَن سرب البيانات من حاسوبه؛ فلم يطالعها أحدٌ سواه..

أخبره أنه يرى وجهه في ظلال الوجوه، ويسمع صوته من أفواه من يُحدثهم.. بل أحيانًا يسمع صوته داخل رأسه هو!!

لم يصدِّقه الغبي، وأخذ ينظر إليه كمن ينظر إلى مجنونٍ!

بل هو المجنون.. كيف يُخبره -وهو يعلن انسحابه من القضية واستغناءه عن وظيفته في الشركة- أنَّ التحريات أثبتت أن الحساب الذي أرسلت منه البيانات ليس مزيفًا أو وهميًّا، بل حسابه هو؟!!

كيف يقول له إنه فقد عقله ودمَّر نفسه بنفسه؟!

الآن، إجراءات مُحاكمته على قدمٍ وساق، بل إن زوجة شريكه قد رفعت عليه دعوى تتهمُه فيها بالتحريض على قتل زوجها..

جميعُهم أغبياء.. جميعُهم مجانين..

فُتح باب الزنزانة، ودلف جنديُّ الحراسة وهو يقول بغلظةٍ: انقلع من مكانك وقُم.. وكيل النيابة يُريدك للتحقيق في قضية تحريضٍ بالقتل.. ليلتك سوداء أيها النَّعِس.

حدَّق في وجهه بذعرٍ.. لم يكن ما سمعه هو صوتُ الحارس الغليظ الأجشُّ.. وليس ما يراه الآن هو وجهه.. هناك ظلٌّ يغشاه يحمل ملامح يعرفها جيدًا، تبتسم ابتسامة وعيدٍ..

فوجئ به الحارس ينظر إليه ويضحك.. ثم يُقهقه ويُقهقه وهو يرجع رأسه للوراء.. أما الظلُّ فقد انسحب ليذوب بعيدًا.. فيما وراء الظِّلال.

التذكرةُ الخامسةُ

الـمُـواجَـهـةُ

بقلم: د/ نورا عفيفي

اقترب منها ظلالٌ لشخصٍ في الظَّلام..

أجهدَتْ نفسها في استيضاح ملامحه قبل أن تتبيَّنها.. نعم إنه هو مَن رحل عن عالمها سنواتٍ طويلةً.. تركها في مرحلة المُراهقة.. عاد الآن بعد أن بلغت الرُّشد.. لكنَّ ملامحه لم تتغير.. ولا هيئته..

وسيمًا أنيقًا كما عهدته، بابتسامته الطَّيبة.

تهتف بلهفةٍ: أهو أنتَ يا أبي؟.. أهو أنتَ؟

يقترب منها مبتسمًا ابتسامةً حزينة قائلًا: نعم يا بُنيتي، أنا..

هي بصوتٍ متهدجٍ:

كيف حالكَ؟ هل يصلكَ دعائي لكَ؟ هل أنت راضٍ عني؟ هل كنتُ لك الابنة الصالحة؟

قال بابتسامةٍ حانيةٍ: نعم، تصلني، وأزهو بها بين رفاقي هناك.. ابنتي لم تنسني، بينما يُعاني الكثير منهم من نسيان الأحبَّة.. تأتيني بطبقٍ من نورٍ؛ فتدمع عيناي أن لي ابنةً صالحةً.

مبتسمةً بحزنٍ: اطمئن يا أبي.. لن أنساك مهما طال الوقت. أتعلم؟ لقد كنتُ أتوق لأنّ تزهو بي وتذكرني بين رفاقك في الدُّنيا، كما تذكرني الآن في آخرتك.. لكنْ، لا بأس.. سأكون لكَ الابنة الصالحة حتى لو لم تكن لي الأب الذي تمنيتُه!

تتلاشى ابتسامتُه.. يتأمَّلها في وجلٍ وتساؤلٍ..

فتُضيف بحزنٍ:

أتعلم يا أبي أنني لم أفتقدْك؟ لم أستشعر اليُتم بموتك؟ لأنني استشعرتُه في حياتك وحياة أمي مرارًا وتكرارًا..

ربَّما يشعر اليتيم الحقيقيُّ بمرارة الفقد مرةً واحدةً، لكن مَن هم مثلي يشعرون به طوال الوقت؛ لأن أمهاتهم وآباءهم حولهم ولا يتمتَّعون بحبهم وحنانهم. نعم، لقد كنتُ يتيمةً في وجودكَ يا أبي!

قال متألمًا: هل قسوتُ عليكم يومًا؟

هزت رأسها نافيةً، ودموعها تسيل ببطءٍ على وجهها: لم تكن قاسيًا يا أبي، ولكن كنتَ غائبًا. لا أذكر أنك ضربتني يومًا أو عنَّفتني أو أحدًا من إخوتي، ولكن

غيابكَ كان أقسى من أيِّ تعنيفٍ.. أكنت تظنُّ أن الغياب أهون من القسوة؟ لا يا أبي، لا يوجد أقسى من فقدان الأب وهو حيٌّ؛ فهو بوصلة الأبناء وأمانهم.. سندُهم ودعمُهم.

قال متهدجًا: أحيانًا يكون الغياب أفضل الحلول.. والخيارات لديَّ لم تكن كثيرةً؛ لقد كنتِ صغيرةً يا ابنتي.. لا تدركين ما تعرضتُ له.

هتفت بحرقةٍ: ولكنني كبرتُ الآن وأدركت بعدما أصبحت أمًّا أن كلَّ الخيارات لديَّ متاحةٌ.. إلَّا أولادي.. مهما كانت الرياح عاصفةً، أو الأمواج عاتيةً.. كنت سأصنع لهم بجسدي شراعًا يرسو بهم على برِّ الأمان.. كنت سأتخلَّى عن روحي قبل أن أتخلى عنهم. الأبناء هم فلذاتُ الأكباد، وأثمن ما في الحياة.. فكيف تناسيتَ هذا أنتَ وأمي؟! كيف؟!

أطرقَ برأسه؛ فتابعت بحزنٍ:

أبي، تصوَّر! لم تجمعني بكَ ذكرى تجعلني أستعيدُها وتدمع عيناي منها.. أليست هذه قمةُ القسوة؟؟!!

ما الذي يُبكي الناسَ على فراق الناسِ يا أبي؟ أهي صِلة الدم؟ قُدسية العلاقة؟ أم المواقف التي تجمع بعضهم ببعضٍ، والذكريات

الجميلة، والحياة التي تشاركوا حُلوها ومُرها معًا، والمشاعر المُتبادلة بينهم؟

تتقلص ملامح وجهه في ألمٍ، ويضع رأسه بين كفيه قائلًا: ابنتي.. إنني..

تُقاطعه بلهجةٍ بها لينٌ:

أبي، لا تغضب مني، ولكن حقًّا أحاول البحث في دفاتري القديمة عن شيءٍ ما.. موقفٍ ما.. حتى لو ضئيلًا.. لكن لا أجد!

ألهذه الدرجة كنا مُهمشين في حياتك؟ ألهذا الحدّ كنت غائبًا؟

هَمَّ بقول شيءٍ ما، ولكنها واصلت:

لا. انتظر. انتظر يا أبي..

أذكر جملةً قلتها لي مرةً.. كنت أنظف السجاد، فتأملتني وأنا أتصببُ عرقًا، وقلتَ لي جملةً لن أنساها.. قلت لي:

إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أنّ يتقنه. لم تقل لي هذا الكلام نصًّا، ولكنْ ما معناه. كنتُ مرهقةً وقتها. عظامي تئنُّ، لكن هذه الجملة حفَّزتني وشجَّعتني على إتمام ما بدأته.. ليس هذا فقط، بل انحفرت في أعماقي كنقشٍ على حجر.. فكنتُ أتقن كلَّ شيءٍ أقوم به يا أبي.. وأتذكَّر وأنا أتقن العمل كلماتكَ هذه، وطريقتكَ في إلقائها.. أتقنتُ البُكاء حتى جفَّت عيناي من الدموع.. وأتقنتُ الإحساس حتى تمزقتْ روحي.. أتقنتُ الإخلاص حتى أرهقني الخذلان..

أتقنتُ الوفاء حتى مزقتني الخيانة مراتٍ ومراتٍ.. أتقنتُ الحُزن.. وأتقنتُ التظاهر بعدم الحُزن.. أتقنتُ الضحك في أشدّ لحظات الألم.

أبي، جملةٌ واحدة منكَ كيف فعلت بي، وكيف تأثرتُ بها!

ما بالكَ لو تبادلتَ معي الحديث؟! لو احتضنتني؟ لو ربَّت بيدكَ هذه على رأسي؟ ما بالكَ لو قبَّلتني.. أو شجَّعتني؟!

لماذا لم تفعل؟ أكنتَ تكرهني؟ أمْ أن وقتك لم يتيسر لي، وقد كان وقتكَ وحبُّك ومشاعركَ متاحةً طوال الوقت لغيرنا؟!

أذكر يا أبي أنكَ حملت ابنة عمِّي على قدميك تُدللها وتعطيها هدية نجاحها، وتُخبرها بفخرٍ أنها ستصبح

"طبيبة أد الدنيا"، وهي تبتسم بزهوٍ، وتنظر إلينا باستعلاءٍ.. ولمَ لا؟ فهي تُعامَل كملكةٍ من أبويها، وها هو عمُّها يشاركهما التدليل والحبَّ. لمّ أشعر بالغيرة منها وقتَها، بل شعرت بصورةٍ تلقائيةٍ كطفلةٍ، أنها جديرةٌ بأن تكون طبيبةً، وأنها ذكيةٌ وجديرةٌ بالنجاح؛ لأنكَ قلت هذا، ولأنكَ أحببتها وتُدللها.. هكذا ببساطةٍ؛ لتعلم كم آمنتُ بك وصدقتكَ، ولكنني لم أكن لك مرئيةً حتى! لكمْ تمنيتُ لو أنك فقط أعطيتني نظرة الرِّضا هذه والفخر، ولو لمرةٍ واحدةٍ في عمري.

متألمًا: كنتُ حبيس غضبي منها؛ فقد استحالت بيننا العِشرة..

صرختْ: هي تقول أنتَ، وأنتَ تقول هي.. تدَّعي أنكَ ضحيتها، وهي ضحيتكَ، ولكن الحقيقة أننا كنَّا ضحيتكما وضحية الناس وضحية مجتمعٍ يقسو بشدةٍ على الضعيف، ونحن من غيركما كنا غايةً في الضعف.. لمَ ارتضيتم لنا كلَّ هذا؟

أتعلم؟ لقد ظللتُ وقتًا طويلًا أظن أنني طفلة سيئةٌ لأنني لا أحظى منكَ بالحُب.. تخيَّل؟

لم أكن أشكُّ أبدًا في صلاحكَ أنت وأمي.. بالعكس، كنتُ أظن أننا أطفالٌ سيئون، لأننا لا نحظى بالاهتمام منكم مثل بقيَّة الأطفال.. حتى كبرتُ

وأدركتُ: أبدًا، ليس العيب فينا.. لسنا أطفالًا سيئين، بل محرومين.. ولكنْ مع ذلك، ظلت هذه الغُصة تملأ حلْقي، وهذه المرارة في قلبي، والضَّعف يجتاحني مهما تظاهرتُ بالقوة.

بدموعٍ غزيرةٍ: أتكرهينني لهذا الحدِّ؟

قالت بصوت باكٍ: لا، لستّ أكرهك أبدًا.. بالعكس، لكنني فقط أشعر بالمرارة حين أسمع وأرى أشياء عن الأبوَّة لم أجربها معكَ.. معنى السند والأمان..

كبرتُ وما زال الكلام عن الأبوَّة يؤلمني.. اليُتم الحقيقي أهون من فقدان الأب وهو حيٌّ يُرزق، يمنح وقته وعطفه وحنانه للآخرين.

هو بحزنٍ: كيف حالكِ الآن؟ هل تزوجتِ؟

أجابت وهي تمسح دموعها:

نعم، لقد تزوجتُ يا أبي.. لم أكن أبدًا أفكر يومًا أنني سأتزوج أو أنجب، أو أنني سأكون جديرةً بهذا؛ فأنا في قرارة نفسي أشعر بالغباء والفشل.. وأنتَ السبب.

مبهوتًا: أنا؟ كيف؟ هل نعتكِ يومًا بالغباء أو الفشل؟

هي باكيةً: لا، ولكنني كنتُ أستشعر ذلك تلقائيًّا

حينما تمتدح أطفال الآخرين أمامي، وتشيد بتفوُّقهم وذكائهم.. كما قلت: كان إيماني بكَ أقوى من معرفتي لنفسي. وكيف أعرف نفسي أو أحدِّد قدراتها وأنتَ بوصلتي واتجاهي؟!

ترسخ لديَّ إحساسٌ عارم بالغباء، وأنَّى للغبية أن يرغب فيها أحدٌ؟ وأنَّى للغبية أن تقيم أسرةً وتدير بيتًا؟

زوجي إنسانٌ جيدٌّ، يحثني دومًا على نسيان الماضي، ولكن لا أستطيع؛ فهو يطاردني بإلحاحٍ. وكيف أنساه وندوبُه تملأ روحي، وآثاره باقيةٌ معي ومع إخوتي؟!.. وتذكّرنا هي به طوال الوقت.. ما زالت كما هي يا أبي.. عصبية، بالعكس.. زادها التقدُّم في العمر حدةً في الطبع.. تعبتُ يا أبي.. تعبتُ.

أنهكتني في إرضائها، وهي لا ترضى؛ حتى قررتُ أن أكفَّ، وعندما قررتُ أن أكفَّ تعبتُ أكثر؛ فأنا مريضة بحُبكما ورضاكما، وربما كان هذا ما يؤلمني ويعوقني عن مُمارسة حياتي بشكلٍ طبيعيٍّ..

أعرِّفك على أولادي.. نعم أنجبت أولادًا هم جنتي الآن على الأرض:

هذا ابني محمد.. لقد سميتُه على اسمكَ. أعلم أنكَ لو كنت موجودًا لأعطيتَه الحنان الذي لم تعطه لي.. لضممتَه إليك وربَّت على رأسه.. أحكي له ولإخوته عنكَ.. بعض ما أذكره وما قيل عنكَ من الآخرين.. ما أعرفه عنكَ من الآخرين أكثر بكثيرٍ ممَّا أعرفه بنفسي عنكَ؛ فقد عاشرتَ الأغراب أكثر ممَّا جالستني..

أقول لهم: لقد كان طيبًا.. سيرته الجميلة يذكرها كلُّ مَن يعلم أنني ابنته.

لا تحزن يا أبي، لستُ غاضبةً منك.. لقد نسيتُ غضبي، ولكنني الآن أشعر بالشفقة عليكَ أكثر. بعدما جربتُ الأمومة علمت أن عطف الأب وحنان الأم يقابله حبُّ الأبناء الذي لا يقدَّر بثمن.. حضن الابن لأبيه وأمه لا يعادل جماله جمالٌ، وحرمان الأب من عاطفة البنوَّة حرمانٌ يعادل شعور اليُتم.. الأمر متبادلٌ، فكما حرمتنا من عطفكَ، حرمتَ نفسك من حناننا وحُبنا.

يقترب منها مادًّا ذراعيه..

تهتف وهي تستوقفه: لا.. ليس الآن..

لم أعُد أحتاج لهذا الآن.. فقط أردتُ أن أخبركَ بما في قلبي.. مرةً في عمري أردتُ أن أصارحكَ..

والآن، أشعر بالارتياح.

يتأملُها بحزنٍ ويتراجع مبتعدًا..

تهتف به: أبي..

يلتفت إليها فتكمل بدموعٍ تغرق وجهها: لقد أصبحتُ طبيبةً.. الطبيبة الوحيدة في عائلتكَ.

نعم، كلمة طبيبة كانت تعني لي المستحيل يومًا ما؛

فقد كنت أشعر بالفشل والغباء طوالَ عمري، لكنها أتت إليَّ طواعيةً صاغرة دون سعيٍ.. فقط رحمة من ربي ليُخبرني أنني لم أكن يومًا فاشلةً أو غبية أو سيئةً، ولكن كلُّ ما هناك أنه لم يكن لدي أبٌ.

قال ودموعُه تسيل ساخنةً على وجهه: سامحيني..

ثم تلاشى في الهواء؛ فهتفت وهي تبكي: أبي.. ثم انتفضت فوق فِراشها، وأخذت تتلفتُ حولها فلم تجده.. كانت بغرفتها وحدها.. دموعُها تُغرق وجهها؛ فرفعت يديها إلى السماء تدعو له بالرَّحمة وتغمغم: سامحتُك يا أبي.. سامحتُك.

التَذكرةُ السادسةُ

لستُ نِكديةً

بقلم: د/ نورا عفيفي

أهتفُ باحتجاجٍ : لستُ نكدية..
لماذا ينعتونني دائمًا بهذه الصِّفة القميئة القاسية؟

بالعكس، أنا إنسانةٌ مرحةٌ، أحب الضحك والهزار جدًّا.. لا أحب النَّكد. ومَن مِنا يُحبه؟

فقط، أجدني أحيانًا في مواقف -حتى لو مواقف مُبهجة- لا إراديًّا أتفكَّر وأتأمَّل.. وأتعمَّق في التأمُّل.. ثم أوغل في التأمُّل؛ حتى يوصلني تأمُّلي للبكاء!

هذه عادةٌ، لكن ليس معنى ذلك أنني نكدية بكلِّ تأكيدٍ.

مثلًا، في زفافي.. هذا الحدث الذي لا يتكرر غالبًا في العمر، حلم كلِّ فتاةٍ.. نعم، كنت سعيدةً.. هذا لا يتعارض إطلاقًا مع بكائي، حين تأملتُ إخوتي وأمي سيعودون إلى المنزل بدوني.. أشفق عليهم من شعورهم بالحُزن لفراقي، أكثر من شعوري نفسي لفِراقهم.. ستشعر فِداء وحنين بالوَحدة بالتأكيد، فمَن سيتعارك معهن؟ مَن سيتجاذب معهن شدَّ الشعر؟ ترمقني أختي الكبرى بنظراتٍ متحسرةٍ، لستُ أدري لماذا؟! هل أتزوَّج في نظرها الآن، أم أنني في سبيلي لقبري؟!

لماذا ترمُقني بهذه النظرات؟! لا أتمالك نفسي فأنفجر باكيةً وأنا أحتضنها، وكأننا لن نرى بعضنا ثانيةً، رغم أنه في فجر اليوم الثاني، كان الجميع محتشدًا في منزلي!

ورغم ذلك، انفجرت باكيةً أيضًا عند مُغادرتهم، فأختي الكبرى رمقتني بتلك النظرات المُتحسرة مرةً أخرى.. (أدركتُ سببها الآن بعد سنواتٍ من الزواج وقبوعي بين تِلال المواعين وجبال الملابس)..

أحاول الاختصار، ولكنْ أحاول توضيح الأمور، وهو أن البُكاء لا يدلُّ إطلاقًا على الحُزن أو النكد، إنما هي دموع الحنين.

عند وِلادة ابني، جلستْ أختي فداء بجواري.. تُعطيني الأدوية، وتحمل طفلي وتُدلِّله بأمومةٍ طاغيةٍ. لم أدرِ لماذا انهمرت دموعي غزيرةً؟! كيف أستطيع أن أردَّ لها جَميلها؟ منذُ عامٍ تقريبًا -قبل زواجي- كنتُ أتجاذب معها شدَّ الشعر، ونتبادل الاتِّهامات والشتائم، وكنت أكيل لها وتكيل لي، وها هي تقف بجانبي، وتقف في المطبخ لتُعدَّ لي الشوربة والفراخ المحمَّرة اللذيذة.. يرتفع نشيجي المتأثِّر، حتى إن الجميع ليظنُّون أنها آلامُ الجِراحة!

مثلًا، في عيد الأضحى.. والأجواء رائعةٌ، والأولاد مبتهجون بقُدومه، ونحن ملتفُّون حول الجزار الذي جذب الخروف إلى لداخل حتى يقوم بذبحه، تأملتُ الموقف.. ما هو شعور الخروف؟ لا بد أنه يشعر بالرُّعب وهو يُساق للذبح ويُدرك أنها النهاية! كيف يتعامل الجزَّار بهذه الآلية والجُمود مع هذا الكائن؟! هل سيشعر بالألم؟ هذا اللَّحم الذي سأتناوله كان كائنًا حيًّا رقيقًا يرتع في الكلأ آمنًا مطمئنًّا.. تدمع عيناي ويضيق صدري و"أتشنهف" باكيةً، ويرمقُني زوجي بعدم رضا، وأولادي بدهشةٍ.. حسنًا! هذا موقفٌ إنسانيٌّ لا يدلُّ أبدًا على النكد.

ذات مرةٍ، كنت أركبُ السيارة مع زوجي، وفي الجهة المُقابلة سيارة ميكروباص تقوم بالتحميل.. لاحظتُ سيدةً شابةً ومعها سيدةٌ أكبر سنًّا تبدو أمَّها، تساعدها على الرُّكوب، وهي تحمل عنها حفيدتها فيما يبدو، وتضعُ حقائبها داخل السيارة قبل أن تقبِّل الطفلة وتُدخلها السيارة، ثم

تلوِّح بيدٍ معروقةٍ نحيلةٍ لابنتها مودعةً. تأملتُ وجهها المتجعِّد الحاني، وجسدها الضئيل..

لا بد أن ابنتها قضتْ معها اليوم أو عدة أيامٍ، وها هي عائدةٌ إلى منزلها، وتقوم أمُّها رغم ضعفها الواضح وكِبر سنِّها بتوصيلها إلى الموقف، ولا بد أن هذه الشُنط الكثيرة بها إمداداتٌ أمومية معروفةٌ رغم بساطة مظهرها. الأمُّ.. عطاؤها لا ينفد، وحنانها فيَّاض، ولم أدرِ لماذا انسابت دموعي حارةً؟! دموع حنينٍ.. لستُ أدري لماذا ثار زوجي وأخذ يكيل لي الاتهامات ويتهمُني بالنكد المستمرِّ؟!

في زفاف إحداهنَّ.. جلسنا على إحدى الموائد نصفقُ في مرحٍ وسعادةٍ وبهجةٍ. كان أبو العروس يرقص معها ويضمُّها بأبوةٍ حانيةٍ. تجمدتُ لحظاتٍ وأنا أفكِّر: هذا الأب الحنون الذي ربَّى وتعب وكبَّر ابنته؛ ليُسلمها في النهاية لرجلٍ قد يسيء إليها ويذيقها ألوانًا من المآسي، بينما يقف الأب عاجزًا عن حماية ابنته ودرءِ الأذى عنها، وهذا أكثر ما يقهر قلب الأب.. عجزُه عن حمايةِ صغيرته. ها هو سعيدٌ الآن، ولكنني أرى بعين الخيال جلوسه مهمومًا بصالة منزله، واضعًا رأسه بين كفَّيه يريد حلًّا لها.

انهمرت دموعي، فهزَّ زوجي رأسه كالمعتاد بغيظٍ.. أريد أن أفهم.. لماذا لا يتعاطفُ مع أفكاري ويقدِّر مشاعري؟!

أحبُّ الأطفال جدًّا، وأبتهج حين أراهم أمامي ببراءتهم ومشاعرهم الصافية. ذات مرةٍ كان هناك طفلٌ صغيرٌ يلعب بدُمية، ويطلق أصواتًا مُحببة لنفسي.. كلماتٍ غير مفهومةٍ ولكن تثير البهجة. تجمدتُ: هذا الصغير البريء سيكبر، وسيُواجه الحياة بمتاعبها ومشاكلها الكثيرة، وقد يُعاني. ثُرى ما الذي ينتظره فيها؟ يتطلَّع حوله بعينٍ جميلةٍ بريئةٍ. هل

يعلم أن الحياة ليست ببراءة وطيبة قلبه وصفاء نفسه؟ هل يعلم وهو يلهو الآن بالدُّمية أنه سيكدُّ ويكدح ويتصبب عرقا حتى يُطعم أطفاله؟ دمعت عيناي إشفاقا عليه، وهتف زوجي ثائرًا: لماذا تبكيييييين الآاااااااااااان؟! هل تُحبين النكد؟ هل سنعيش فيه طول عُمرنا البائس؟!

بالطَّبع.. لا يدرك ما يَجيش بصدري الآن. وأنَّى له ذلك وهو لا يُبدي أدنى محاولةٍ لفهم دواخل شعوري؟! بالطبع.. يريد المائدة عامرةً، والطعام أشكالًا وألوانًا، والمنزل نظيفًا، والملابس مغسولةً.. ولا يهم أي شيءٍ آخر..

هل أنفجرُ فيه الآن وأشعلها معركةً حامية الوطيس، وأذهب إلى منزل أهلي؟ فأنا أضيق ذرعًا باتهاماته الباطلة لي بأني نكدية..

لستُ نكدية.. لسسست نكدياااااة!

التذكرةُ السابعةُ

لا عَزاءَ للأغبياءِ

بقلم: صفاء متولي

جلس

على سريرٍ أبيض في غرفةٍ بيضاء فارغة مُوصدة من الخارج ، وهو يضمُّ ركبتيه إلى صدره، ويهزُّ جسده بشكلٍ منتظمٍ، ضاربًا إياه في الحائط خلفه، وعيناه تنظران في الفراغ، وهـو يقول مرددًا بشكلٍ منتظمٍ: منزلي.. لا ثقة.. لا أمانَ.. لا عزاءَ للأغبياء!

دخلت عليه امرأةٌ ترتدى زيًّا أبيض وتحمل في يدها قلمًا وكراسًا.. أعطتهما إياه مبتسمةً وهي تقول له بشكلٍ آلي:

صباحُ الخير. كيف حالك اليوم؟ لقد أحضرتُ لك طلبكَ المُعتاد، ووضعتُه على السرير.. وذهبت دون أن تنتظر ردًّا.

لم ينظر إليها، ولم يُبدِ أي اهتمامٍ بوجودها، بل بدا أنه لم يرها مطلقًا، فلم يحرك ساكنًا. ظلَّ هكذا لفترةٍ من الزمن حتى تحرَّك من مكانه، مادًّا يده إلى القلم والكراس، وهو يقول تارةً: منزلي.. لا ثقة.. لا أمانَ، وتارةً أخرى: نعم، ورقة.. ورقة؛ فالورقةُ لا تخون.. لا تبوح ولا تخون ولا تخدع ولا تغدر.

نعم، يجب أن أكتب لأبوح وأُخبر ولا أُباح.. فلا ثقة.. لا ثقة..

وأمسك بالقلم وأخذ يكتب في الكراس كلماتٍ مبعثرةً غير منتظمةٍ، وهو يقلِّب في الصفحات ويتذكَّر ما حدث، وما لم ينسه، وما لم يستطع تجاوزه؛ فعنده توقفت حياته.

كانت هذه هي عادته اليومية التي تُريحه وتُطمئنه.. الكتابة. كان شابًّا في أواخر العشرينيات من عُمره، عمل لمدة خمس سنواتٍ في إحدى دول الخليج، كوَّن فيها نفسه، وادَّخر مبلغًا من المال يساعده على بدءِ حياته في بلده. عاد فأقام في منزل والديه الراحلين، والذي تحوَّل

إلى ما يُشبه الخرابة بعد وفاة والديه وزواج شقيقه وشقيقته وانتقال كلٍّ منهما إلى منزله. كان يحبُّ منزله البسيط المكوَّن من طابقٍ واحدٍ، ويحبُّ المنطقة الشعبية المتواضعة التي بها، ويحبُّ جيرانه الودودين..

عِشرة السنوات، كان يعتبر كلَّ ما يخصُّ منزله نعمةً كبيرة تستحقُّ الشكر؛ ولذلك تمسَّك بالإقامة به؛ فبين جَنباته عاش طفولته السعيدة، وفي شوارع حارته لعب مع أقرانه، وفيه قضى مُراهقته الشقيَّة المُثيرة، وفيه التحق بالجامعة، وبغُرفته الصغيرة حادثَ أول فتاةٍ أحبَّها وأحبته قبل أن تفرِّقهما الظروف. هو يتذكَّر سعادته بأول راتبٍ قبضه من عمله كمحاسب في شركةٍ صغيرة، حينها دخل على والدته في المطبخ، وسعادةُ الدنيا كُلُّها على وجهه، وهو يحمل قالب حلوى صغيرًا، وكيسًا به فاكهة، وهو يشعر أخيرًا أنه قد أصبح رجلًا مسئولًا..

مستقلًّا ماديًّا، وله دخلٌ يأتي من عرق جبينه.. قبل أن يعي أنَّ الحياة تحتاج إلى أكثر من هذا الراتب الضئيل، فيقرر حينها السفر خارجًا.

كان هذا المنزل الذي جمعَ عائلته السعيدة وشهِد على ضحكاتهم وأحزانهم. كلُّ حجرةٍ به، وكلُّ حجرٍ فيه.. يحمل الكثير والكثير من الذِّكريات، ويحكي الكثير من القصص المُختلفة. إنه منزلُه ومنزل والديه الراحلين، الذي يحمل رائحتهما، ولن يُغادره، بل إنه عاد إليه وقد قرَّر أن يُحيي الرُّوح فيه، ويعيد الحياة له.

هذا هو قراره النهائيُّ؛ سيُعيده سيرته الأولى، بل إن الأمر أكثر من ذلك..

جلس في منزله المُتهالك مع أخته وأخيه اللذين أرسلَ في طلبهما. كانت شقيقتُه متأففةً من المنزل المُغلق منذ أربع سنواتٍ منذ رحيل والدتهم وهي تقول له: كيف لك أن تعيش في هذا المنزل الخرِب؟! إنه آيلٌ للسقوط؟!

فأجابها ضاحكًا: هذا ما جمعتُكما من أجله؛ أريد أن أعرض عليكما عرضًا.

فقال شقيقُه الأكبر: أي عرضٍ؟

فشرب من كوب ماءٍ ووضعه أمامَه ثم أجابه في حسمٍ: أريد أن أشتريَ نصيبكما في المنزل.

فضحك شقيقُه وقال مستهزئًا: عن أيِّ منزل تتحدث؟!

فتعجب وأجابه: عن أيِّ منزل؟! أوَ نملك غيره؟ عن هذا المنزل طبعًا.

فسألته شقيقتُه: لِمَ؟

- لأنى أريد أن أجدِّده وأتزوج به.

فضحك شقيقه، بينما قالت شقيقتُه: أخي، هل سافرتَ وتغربت بعيدًا عن أهلكَ وبلدك من أجل أن تُنفق مالكَ على هذه الخرابة؟! ألا ترى كيف هو؟!

- إنه ليس خرابةً، وأنا أحبُّه؛ ففيه عشتُ أجمل أيامٍ، وأريد أن أُكمل حياتي به.

فقال له شقيقُه: هو لا يساوي شيئًا. هو قديمٌ متهالك، في منطقةٍ شعبيةٍ لا تُذكر، ولا يرغب به أحدٌ. أنا لا أريد شيئًا منكَ، فلتأخذ نصيبي دون مقابلٍ، على أية حالٍ؛ فإن المبلغ الذي سوف أحصل عليه ضئيلٌ ولا يستحقُّ.

هزَّت شقيقته كتفيها وقالت: وأنا أيضًا لا أريد شيئًا، ولكنْ نصيحتي لك ألا تهتمَّ لأمر هذا المنزل واتركه واشترِ لك شقةً في إحدى المناطق الراقية.. هو لا يستحقُّ التعب.

- ولكني مصرٌّ على أن أشتريَ نصيبكما وأن نكتب العقود.

ضحك شقيقُه وقال: أخبرناك أننا لا نريد شيئًا، فلتفعلّ ما تريد بتلك الخرابة، لن نأبه لشيءٍ ولن نأخذ شيئًا. أنتَ شقيقنا الصغير في النهاية، ووصيةُ والدَيْنا.

قالت شقيقته معقبةً: أنا أتفقُ مع أخي، ولا توجد أوراقٌ بيننا؛ فنحن إخوةٌ.

فرح وقال لهما: حسنًا، كما تريدان.

نام ليلتها سعيدًا منشرحًا، وهو يشكر خالقه على نعمة الإخوة المُتحابين، الذين رفعوا شعار "الولاء للأخوَّة"، وأخذ يتذكَّر طفولتهم معًا، ولعبهم معًا، وذهابهم وإيابهم معًا.. هما شقيقاه الحبيبان اللذان يُنفذان وصية والديهم بلا شكٍّ، فها هما قد تنازلا عن حقِّهما في المنزل له، ووفَّرا عليه جزءًا من الأموال تساعده في عمل شيءٍ آخر.. نعم هؤلاء هم الإخوة، وتلك هي الأخوَّة الحق.

مرَّت الأيام، وحضر العمال الذين بدءوا في ترميم المنزل وصيانته وتجميله، وكان يمرُّ بينهم وهو يشعر بسعادةٍ كبيرة وهو يراهم يعملون ليعيدوه سيرته الأولى، بل ليجعلوه أفضل ممَّا كان. كان يتمشَّى بين جَنَبات المنزل أثناء التجديدات، يُراقب تفاصيله، ويبني أحلامه، فكان يُخبر نفسه بأنه بعد الانتهاء منه، سوف يبحثُ عن بنت الحلال ليتزوَّجها، وسوف ينجبون أبناءً، وسوف يربُّونهم كما رباهم والدُه، وربَّما ينجب ثلاثةً

كعددهِ وإخوته، سوف يعلّمهم كيف يحبون بعضهم ويصبحون متماسكين مثله هو وإخوته.. سوف يدعُهم يلعبون في نفس الشوارع التي لعبَ بها، ويذهبون إلى ذات المدارس التي ذهب إليها، ويعرفون نفس الجيران..

سوف يكرّر حياته السعيدة نفسها مع أبنائه، وسيكونُ الشاهد هو المنزل. سوف يتركُه لهم ليتوارثوه من بعده؛ لينتقل إلى أبنائهم، ثم إلى أبناء أبنائهم.. لن يصبح مجرَّد منزل متهالكٍ في حيٍّ شعبيٍّ، ولكنه سيصبح مؤرِّخ العائلة والشاهد عليها. هو ليس مجرَّد منزلٍ نشأ فيه، بل هو تاريخٌ يؤرخ. هو منزل العائلة.. عائلتُه.

انتهت التجديدات بعد عدَّة شهورٍ، وتحوَّل المنزل إلى تحفةٍ معمارية في ذلك الحيِّ البسيط، وسَعِد وهو يرى أمام عينيه بداية حياته الجديدة ومُنطلقها.

دعا إخوته إليه ليُريهم أوَّل إنجازاته في الحياة، وجلسوا معًا داخل المنزل، وهم لا يصدّقون أن تلك الخرابة تحوَّلت إلى هذه الجنة. كانوا يحسدونه في سرِّهما وهو يحكي لهما عن أحلامه وأمانيه، وما ينويه وما سيفعلُه. ظلَّ هكذا طوال الليل.. هو يحكي وهما يستمعان في صمتٍ.

تسابقت الأيامُ، وعاد إلى منزله ذات يومٍ مُشمس حارٍّ، ليجد إخوته ينتظرونه في المنزل الذي ما زالا يملكان مِفتاحه، وما إن رآهم حتى تهلَّلت أساريره ورحَّب بهما، فبدأ شقيقُه الحديث قائلًا: جاء مشترٍ للمنزل.

فصَمتَ ونظر إليه في بلاهة، ثم أكملت شقيقتُه: شاهَد المنزلَ وأعجبه كثيرًا، وسوف يدفع مبلغًا جيدًا.

لم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، وإنما نظر إليهما في استغرابٍ تامٍّ وهما يتبادلان النظرات مع بعضهما ومعه، وابتلع شقيقُه ريقه وقال حاسمًا: ونحن وافقنا على بيعه.

وقف مصعوقًا وهو يصرخُ فيهما: عن أيِّ منزلٍ تتحدثان؟! هل تتحدثان عن هذا المنزل؟ منزلي أنا؟!

فقال له شقيقُه بهدوءٍ: ليس منزلكَ وحدك، إنه إرثُ والدينا لنا، ولنا فيه نصيبٌ.

- ولكنكما تنازلتما عنه لي. ألا تتذكَّران؟! كان ذلك هنا في نفس المكان.

قالت له شقيقتُه: كان هذا في الماضي، وقد أخطأنا.

فأكمل شقيقُه: نعم أخطأنا، ولم نقبض أيَّ ثمنٍ، ولم نوقِّع أيَّ أوراق.. والآن، نريد أن نصحِّح هذا الخطأ ونأخذ نصيبنا في هذا المنزل، فماذا في هذا؟! إنه حقُّنا.

صرخ فيهما قائلًا: عن أيِّ حقٍّ تتحدثان؟! لقد تنازلتما عن المنزل لأنه خرابة لا ثمنَ له، والآن حينما أصبح له ثمنٌ تريدانه؟! ولكني أنا من جعل له ثمنًا.

علَّقت شقيقته قائلةً: سنعوِّضك عمَّا أنفقته. أعطنا فواتير ما أنفقتَ، وسوف نُقسمها على ثلاثتنا.

- فواتير؟!

- نعم، فواتير؛ حتى نُعطيك مالكَ.

- أنتِ مَن قلتِ إنه ليس بين الإخوة ورقٌ!

- أخي، لا بد من فواتير حتى نعرفَ كم أنفقتَ لنُعطيك مالكَ فلا يُظلم أحد.

- أيَّ حديثٍ أسمع؟! ما الذي تقولانه؟! بالطبع ليس معي فواتير. لا توجد فواتير. لماذا أحتفظُ بفواتير لمنزلي؟! لقد ألقيتها جميعًا. ولكنْ.. ماذا عن تعبي وأحلامي؟ كيف تفعلون هذا بي؟!

قال له شقيقُه: نحن لا نفعل شيئًا خاطئًا. هذا منزلنا وسوف نبيعه، وكلٌّ منا يأخذ حقه.

- أنا غير موافقٍ. لن أبيع شيئًا.

فقالت له شقيقتُه: إذًا، فلتشترِ نصيبنا أنتَ وتُعطنا المال. لقد عُرض علينا مليون جنيه. فلتخصم نصيبكَ ولتُعطنا نصيبنا.

- من أين لي بكلِّ هذا المبلغ؟! لقد أنفقتُ الكثير على ترميمه وتجديده، ولم يتبقَّ الكثير.

فقال شقيقُه: إذًا حُسم الأمر. سوف نبيعه لذاك المشتري.

- لن يحدُث.

- بلى، سيحدُث.

- وكيف هذا؟

وقف شقيقُه وأجابه بقوةٍ: سيحدث سواءً رضيتَ أم لا، فلن نضيِّع مثل هذا المبلغ من أجل أحلامكَ الورديةِ وعقليتكَ الغريبةِ. سيحدث ولو بالقوة.

صُعق لسماع شقيقه، وقال وهو لا يصدِّق أذنيه: بالقوة! هل ستطردُني من المنزل أم ماذا؟!

- سأفعل أيَّ شيءٍ من أجل إتمام هذه الصفقة.

وقفت شقيقته وقالت مؤيدةً: عنده حقٌّ. أنا أتفق معه. أيُّ شيءٍ مباح ما دام سيردُّ لك عقلكَ.

هزَّ رأسه وكأنه ينفضُ عنه غبار ما علق فيه جرَّاء ما يسمع وقال: أيُّ عرفٍ وأيُّ قانون هذا الذي يجعل إخوةً يقولون لشقيقهم هكذا؟!
أجابه شقيقه وهو يهمُّ بالانصراف: إنه قانونُ الحياة والمنطق.
ردَّد وراءه بلا وعيٍ: قانونُ الحياة والمنطق، ثم ضحك مستهزئًا وأردف قائلًا:
نعم، قانون الحياة والمنطق، ولا مكانَ للأغبياء فيها،
وأنا هذا الغبي لأني صدَّقتُ ووثقت وأعطيتُ الأمان،
متناسيًا أنه لا أمانَ في هذا العالم.. فلا عزاءَ للأغبياء..
سقط على كُرسيه وهو غير مصدِّق ما يسمع. هل هؤلاء هم إخوته؟! مَن قالوا له منذ شهورٍ مضت إننا إخوةٌ.. ووالدانا أوصيانا بكَ.. ولا نريد شيئًا.. هم الآن مَن يسلبونه أحلامَه ويهدُّون حياته قبل أن تبدأ حتى.
هل هذه وصية والديهم؟ وهل هذه هي الأخوَّة؟
بيع المنزل، وبيعت معه أحلامُه وطموحاته، واتُّهم هو بالجنون حتى تملَّكه تمامًا؛ فتغير حاله ليصبح أكثر عصبيةً وشرودًا، وأكثر صمتًا.. ولا يوجد على لسانه غير كلمةٍ واحدةٍ فقط: منزلي.. لا ثقة.. فعرضه إخوته على أطباء نفسيين، نصحوهما بأن يُودَع في مصحةٍ نفسيةٍ ليعالَج بها؛ فأخذا نصيبه من المنزل، وأودعاه المصحَّة، وهما يدفعان تكلفة علاجه منه.. فهذا هو واجبهما الأخويُّ نحوه!
نظر حوله في الغُرفة الصامتة بعينيه الزائغتين، وألقى القلم بعيدًا، وأمسك بالكراس، وأخذ يمزقه كعادته كلَّ يومٍ عند الانتهاء من كتابة كلماته المُبعثرة به، وألقى بأوراقها بعيدًا، ليعود إلى جلسته الأولى وهو يقول: منزلي.. لا ثقة..لا أمانَ.. لا عزاءَ للأغبياء..

التَذكرةُ الثامنةُ

شرٌّ لا بدَّ مِنه

بقلم: مي وحش

بلغتُ

من العمر السابعة والعشرين ربيعًا، كان ربيعًا، بينما كانت أمي تراه خريفًا.

"كل أصحابك اتجوزوا وانتِ اللي قعدالي يا فالحة".

فقد كانت مرتعبةً ألا أتزوج أبدًا.. فإذا حلَّ عليَّ عامي الثلاثون فسأكون بضاعةً كاسدةً لا يصلح التصرفُ فيها. جعلتني قلقةً مثلها، فلم تنسَ يومًا تذكيري بجارتنا الحزينة الوحيدة الشريدة، التي ساءت حياتُها وذبل عودُها، واختفى رحيقُها بعد الأربعين.

وزادت من الشعر بيتًا لتزيد الوضع بؤسًا؛ فأخبرتني أن أمَّها قد ماتت، وسافر أبوها، وشُل عمها، ودُفن خالها، حتى أصبحت وحيدةً وحدة الصبَّارة في الصحراء.. حتى جعلتني أتلهفُ رنة هاتف منزلنا مثلها؛ فرنة الهاتف تحمل احتمال وجود عريسٍ.. ودائمًا ما يورد الكثير، ولا يصلحُ إلَّا أن ننظر في أمر القليل، فقد كانت مورِّدتنا العزيزة مدام سامية جارتنا وخاطبة حيِّنا دءوبة ونشيطةً في عملها، متفانيةً فيه. لم يكن عملًا بأجرٍ، كانت تحتسبُ أجرها عند الله، ولا أعلم حقًّا أكان هذا في ميزان حسناتها أمْ سيئاتها؟!..

بعد أسبوعٍ هادئٍ، لم يكسر هدوءه غير دعواتي وصلواتي بوصول فارس الأحلام، أخيرًا رنَّ جرس هاتفنا رنته المعهودة، وسمعتُ أمي وهي تقول: ألو.. سامية.. لأختبئَ في الممرِّ وأسترق السمع؛ كي أعرف أية معلوماتٍ عن الوارد الجديد.

- أيوة طبعًا فاضية السبت، هي دي وراها حاجة؟!

أخذتُ أتعجب في نفسي لما تفعله أمِّي بي..

- شُغل إيه يا سامية يا اختي.. السبت أجازة، ولو حتى عندها شُغل ما تاخد أجازة، هي يعني عالمة ذرة؟!

لم أكن يومًا عالمة ذرة، ولكنْ هل هذا يدعو للتقليل من شأني، أو يعني أنني متفرغة دومًا؟!.. لأُسكتْ حلقة الدراما التي بدأت بداخلي دون داعٍ.. لمَ أحزن من كلام أمي؟ هل تعتقدين أن يرغب رجل أصلًا في الزواج من عالمة ذرة؟ ما ستقدِّم له بمعرفتها عن الذرة؟ سيرقص له البروتون، أم يدلعه الإلكترون؟

- شمس، يا شمسسسس..

- أيوة يا ماما..

- إيه يا بنتي، انتِ طرشة؟ سامية لسة قافلة معايا، جيبالك عريس..

- كبير؟!

- لا، أنا قلت إنه كبير يا بنتي؟! ده يدوب أكبر منك بسنتين.

- مُطلق؟؟

- لا إله إلا الله لا يا حبيبتي، متجوزش قبل كدة..

- عايش عالة على أهله، وبعد الجواز هيعيش عالة على مرتبي؟

- لا يا شمس، بيشتغل محاسب في بنك..

- يبقى عنده شقة في ميت أبو ربيع في عمارة بتاعة أبوه، وعاوزني أخدم أبوه واخواته وخالته أم حبيبة، عشان كان بيحب حبيبة زمان وفركشو، وهي بتعزه زي أمه بالظبط.

- شمس، انتِ سخنة؟ نشوف دكتور؟ الحالة صعبة أوي يا حبيبتي..

- مهو أكيد في حاجة مستخبية. مش معقول.. مهي بتجبلي عرسان من وانا تمنتاشر سنة، مفيش واحد منهم ظبط، اشمعنا المرة دي؟ دي لو قاصدة مش هتعمل فيا كدة..

- يا حبيبتي، هي بتحاول، وربنا يعمل الخير. حضَّري نفسك بس ليوم السبت.. عاوزة أشوف قمر..

عوجت شفتي وأنا أقول: حاضر.. عيني..

"عاوزة اشوف قمر".. من أين سآتي لكِ يا أمي بالقمر؟!! ليتني تحدَّيتُ جيناتي الوراثية وبدوتُ مثل أنچلينا چولي، ولكنني مثل خمسين بالمئة من فتيات المحروسة، تميزُنا البشرة القمحية، والعيون العسلية، والشعر الأسود كسَواد ليل قريةٍ لم تدخلها الكهرباء يومًا. ليس وقتُ تحطيم الآمال الآن. أمامكِ يومان لتكوني كما قالت أمكِ "قمر"..

دقَّت الساعة الواحدة صباحًا، وأنا ما زلتُ أقف أمام دولابي.. لا أحرك ساكنًا، وأحدِّث نفسي كلَّ فترة: لديكِ عمل غدًا..

ستستيقظين في السابعة صباحًا.. أرجوكِ اختاري قطعة ملابس.. ولو واحدة.. كل عريس يتقدَّم لكِ تشتري له ملابس جديدة! أصبح لديكِ أكثر من ثماني عشرة قطعة من الملابس الجديدة.. حتمًا لديكِ شيءٌ..

لا، لن تكون هذه الملابس مثلما أريد؛ فقد اكتسبتُ بعض الوزن بعد وجبة البيج ماك يوم الجمعة الماضي، التي تبعتُها ببعض الحلوى الشرقية.. أصبحتُ كما يقولون "كرڤي".. كم أعشق الترندات.. فهي تهوِّن علينا ما نُعانيه من كوارث.. بدل كلمة "ممتلئة" أصبحت بين ليلةٍ وضحاها "كرڤي" لتُرضينا عن أنفسنا..

لا أعرف.. لا شيء مناسبًا.. أريد حقًّا النوم. فلتهدئي يا شمس، سنشتري شيئًا. أمامكِ يوم الجمعة.. يُمكننا أن نشتري فيه ما نريد. هيَّا.. نامي الآن.

وضعتُ مخدتي أعلى قليلًا؛ فهذا الوضع الذي يُريحني في النوم، وأغلقت عيني.

بعد ثوانٍ رجعتُ لأحدّث نفسي: كل هذه الملابس، وكل عريسٍ يأتي تقررين أن تشتري؟

حاولي أن تدَّخري ما سوف تشترين به الملابس، واذهبي للكوافير يوم الجمعة.. أيقظي شعركِ الكئيب وبشرتكِ الحزينة من سُباتهما العميق.. ممم.. إذًا سأرتدي التيشرت التركواز..

- لمّ تجدي غير هذا؟ إنه يجعل بشرتكِ تبدو أغمق عشر درجات..

- إذًا فالأسود..

- هل لديكِ عزيزٌ متوفًّى!

- فليكن الذهبيَّ يا شمس..

- نعم، اختيارٌ ممتاز لفرحٍ منصوب على ناصية الحارة..

- شمس.. اخلدي إلى النوم أرجوكِ.. الساعة تخطَّت الثانية.. لن تفيدكِ الحملقةُ في السقف شيئًا غير ظهور الدوائر السوداء حول عينيكِ..

مرَّ الليل وأنا أتقلب من هذا الجَنب للجنب الآخر. لم أنم ولو للحظة، حتى رنَّ جرس منبهي، لأبدأ في تحضير نفسي. أي شيءٍ نظيف ومكوي سَيَفي بالغرض.

أمامي فقط رُبع ساعةٍ كي لا أتأخر عن الذَّهاب للعمل.

نظرتُ للمرآة نظرةً سريعةً.. لا، ليس لديكِ وقت.

لن تضعي أية مساحيق تجميلٍ اليوم..

- والدوائر السوداء التي ظهرتْ حول عينيكِ وجعلتك تُشبهين الباندا؟!

- هذه مُتعة العزوبية. يمكنُني أن أشبه الباندا وجهًا، وحتى جسدًا، ولن يضع لي أحدٌ تقييمًا يوميًا. أظنُّهم يريدون تزويجي لأصبح بائسةً مثلهم.. أضع مساحيق التجميل.. أراقبُ وزني.. أعتني بشعري وبشرتي وأظافري وأقدامي، وأطفالي ومنزلي، وأمِّي وإخوتي وعملي وزوجي وحماتي وأهل زوجي، وأم حسن زوجة البوَّاب.. وعندما يرى زوجي فتاةً أجمل تريدُه، لا يستطيع قول "لا"؛ لأن الحرفين يَعْلقان في كيبورد فمه، ويبرِّر خيانته بأنني لم أعتنِ به بشكلٍ كافٍ..

- أفرغي رأسكِ.. إنه يوم عملٍ جديد على مكتبكِ الزهيد. دائمًا ما أتعجَّب: زُملاء العمل كثيرون، منهم الوسيم، وخفيف الدم، والثري، والذكي..

ولكن دومًا أجذب مستوًى مختلفًا تمامًا لي.. فكم أعجِب بي الأوفيس بوي! وكم كان سيُجنُّ عليَّ رجل البوسطة! وكم كَتب لي الشعر سائقُ مديري!..

لمّ أعلم قطُّ السر.. لمَ أجذب هذا المستوى بالذات؟!

سألتُ صديقةً لي ذات مرة: لِمَ أُعجبُ هؤلاء بشكلٍ مبالغ فيه! حتى إنني أخاف منهم بعض الأحيان، ولا يراني أبدًا الملائمون لي؟!

قالت لي: تبدين مثل هياتم.. تعرفينها؟ هياتم هي حُلم هذه الطَّبقة.. لتجذبي المُناسبين لكِ يجب أن تبدين مثل مُنى زكي.. وشتَّان بين هياتم ومُنى زكي..

فقلتُ لها: كلاهما متّلا أدوارًا +١٨..

قالت بابتسامةٍ خبيثة وكان يبدو عليها أنها تعلمُ ما تقول: +١٨ عن + ١٨ يفرق..

ليس أمامكِ غير زواج الصالونات يا شمس.. إمَّا زواج الصالونات، أو أن تصبحي مثل مُنى زكي..

صِحتُ معترضةً: لا.. مُنى زكي مين.. زواج الصالونات أسهل وأبسط..

تركتُ العمل وظللتُ أمشي على قدمي أتفقد المحالَّ والأسعار والألوان والأشكال، حتى وُفقت أخيرًا لشيءٍ يليق بي. لا.. ليس الأسود. لم يكن قطُّ يليق بي. ممم.. أعتقد هذا هو الفستان المُناسب.. الألوان كثيرةٌ ولكنها مطفية، مزيج من المرح والرزانة.. دائمًا ما كانت لديَّ ملكة الاختيار.. فنانة في اختيار كلِّ ما يخصني. لم يُفدني هذا بشيءٍ، بالعكس.. هو سبب أساسيٌّ في تأخر زواجي.

نمتُ ليلتين أحلم بفارس الأحلام الهُمام.. قضيت أيامهما في شراء الملابس والذَّهاب إلى مُصفف الشعر، وصرف الأموال، واحتساب الأجر عند الله؛ فهذا كان من قبيل برِّ والدتي، أريح قلبها الذي كاد يُجن يوميًّا من رؤيتي أتفانى في جعل شكلي بسيطًا وغير مُلفت..

ضحكتُ وأنا أتذكَّر عندما كنت صغيرةً؛ فقد كانت أوامرها لي مختلفة تمامًا:

لِمي شعرك، متضحكيش بصوت عالي، يعني إيه تحطي روج؟!! بتكلمي مين في التليفون؟!

وعندما كبرتُ تغيَّر كل شيءٍ:

يا بنتي فُكي شعرك ده خلّيه يتنفس.. صوتك مسمعتوش في القعدة من ساعة ما دخلنا عند الناس.. يعني إيه تنزلي غاسلة وشك كدة! إلّا ما حاطة حتى روج.. يعني مفيش حد في حياتك بجد؟ ولا حتى أصحاب بتتكلموا في التليفون؟!..

تُربيني على أن أكون "عسكري ملتزم"، وفجأةً تريد أن يتحوَّل هذا العسكري إلى أنثى متفجِّرة الجمال..

- السؤال: لِمَ تفعلين؟ لِمَ تنفذين كلامها عن غير اقتناع؟ لِمَ وأنتِ تعلمين أن النتيجة دائمًا تكون الفشل؟!

- ممم.. أظنُّ أنني أفعل هذا من أجل نفسي. سأكون أنيقةً وجميلة لنفسي.

- كم تمتازين بقدرةٍ على الإقناع غير عادية! ولكنني لم أقتنع.. لِمَ تجوبين الشوارع بحثًا عن شيءٍ مميز؟ لِمَ تذهبين للكوافير؟ لِمَ تختارين حذاءً غاليًا وحقيبة أغلى؟ لِمَ كل هذا الترتيب؟!!

- أسعى.. إنه السعي.. أسعى للزواج؛ لأكون مثل أيِّ أنثى.. لديَّ منزلٌ أنا مديرته.. أنا فقط.. لديَّ عائلة خاصةٌ بي.. أولاد يملئون حياتي، ورجلٌ يمتعني بالأمان والحنان..

- وإذا لم يكن هذا العريسُ هو الرجل المناسب.. هل تريدين حقًّا أن يرفضكِ هو، أمْ ترفضيه أنتِ؟

ظلَّت الأفكار تعبث بدماغي دون راحةٍ طيلة اليومين.. حتى جاء الموعد.

وصلنا قبلَه ببضع دقائق. نعم، هذا نِتاج استعجال أمِّي وكلمتها المعهودة: "الناس هتزهق وتمشي"..

رأيتُه على مرمى البصر يقترب بثقةٍ. كان طويلًا وعريضًا وممشوق القوام مثل نجوم السنيما. دقَّ قلبي دقة تفاؤل، وقلتُ في نفسي: "سيكون هو يا شمس.. سيكون هو"، لأبتسم ابتسامةً بلهاء تُشبه ابتسامة ماجدة لرشدي أباظة في فيلم "المراهقات".. ولكنَّ الابتسامة بدأت في الاختفاء شيئًا فشيئًا فور اقترابه من طاولتنا.

ما هذه البدلة؟! بدلة بُنية! وكوفيَّة؟! هل فعلًا يرتدي كوفيَّة؟ أهو كاتبٌ في مجلة الكواكب؟!

كانت البدلة ذات طرازٍ قديم نسبيًا، ليس لديَّ معلومات كثيرةٌ عن البِدل، ولكن هذا أمر واضح وجليٌّ، والكوفية الصوفية البُنية أعطته مظهرًا يشبه محمود عبد العزيز في مسلسل "رأفت الهجان".. أظنُّ أن هذا المظهر ينقصُه بايب وجرنال يحلُّ فيه الكلمات المتقاطعة.. أوقفتُ أفكاري بأعجوبة. أعطيتُه فرصة دائمًا ما أعطيها لأيِّ عريس؛ فأنا لا أحبُّ الحكم السريع، ولا أستبقُ الأحداث.. ثم ما مشكلته حقًّا؟ ليس عنده خبرةٌ في اختيار ثيابه؟ عندما أصبح زوجته سأختار له بنفسي..

- مساء الخير..

في داخلي، لا أعرف ما سبب تحيةٍ كمساء الخير والشمسُ في كبد السماء؟! ولكني أجبتُ: - مساء النور.

- اسمك شمس؟!

- أيوة..

- اسمٌ جميل.. أعشق الأسامي الصغيرة الخفيفة..

نظرتُ له بتعجبٍ.. أحقًّا يستخدم اللغة العربية الفُصحى في كلامه؟!

- انتِ خريجة ألسن لغة إنجليزية؟

كنتُ أريد أن أقول له "نعم يا أبا العتاهية"، ولكن كتمتُ دعابتي بداخلي وأجبتُ: أيوة.

- أعشق اللغة الإنجليزية.. لغةٌ جميلة.. أنا نادر.

- ما هو واضح..

- أعمل محاسبًا. أعشق الموسيقى الكلاسيكية، لا أسمع غيرها، وأحبُّ عبد الحليم وأم كلثوم.. أعشق الهدوء والسُّكون.. أماكن خروجي: أخرجُ في جروبي، أو أي نادي شرطة أو جيش على النيل، مثل المكان اللي طلبت أشوفك فيه ده.

- جروبك؟ بجد؟!..

(كم أحمدكَ يا اللّه أنّ ليس لأفكارنا الداخلية صوتٌ)!

- بحب الأماكن الهادئة، الراقية..

في هذه المرحلة كنتُ لا أجيبه. فقط لا أصدِّق ما أسمع. هل هذا شخص حقيقيٌّ، أم أنني أتخيل؟!..

أرجو ألّا تكون نظرة البلاهة تعلو وجهي الآن؛ فدائمًا ما أواجه مشكلةً في التحكُّم في تعابير وجهي..

- انتِ عارفة جروبي ده كان بيخرج فيه مين؟

ابتسمتُ مجاملةً وقلتُ: مين؟

- يوسف بيك وهبي، وعبد الحليم حافظ..

(كنتُ على وشك لطْمِ خدودي في هذه اللحظة؛ لأتأكد أني مستيقظة، وأن هذا ليس كابوسًا)..

ده المكان اللي كانوا بيتقابلوا فيه بشكلٍ مستمر، والمكان شكله زي ما هو، متغيرش. التاريخ والأصالة اللي فيه متغيروش. ناس هادية وراقية..

انتِ عارفة، والدي دايمًا يقولي: انتَ مكنتش مفروض تيجي في الزمن ده، انتَ كان مفروض تتولد في السبعينيات..

قلتُ في بالي: والدك كارمك، انتَ من أيام الحملة الفرنسية على حدٍّ أقصى..

- مبتتكلميش ليه؟

- مفيش، أصلي مختلفة شوية عنك.. بحب اسمع عمرو دياب، وبحضر حفلات، وبحب الزحمة، وخروجاتي كافيهات ومولات..

نظر إليَّ في إعجابٍ: أنا قرأتُ في كتاب قديم في مكتبة جدِّي القديمة في شقة مصر القديمة.. أن الاختلاف يُكمل الأشياء..

هززتُ رأسي بابتسامةٍ مصطنعةٍ.. ثم مضى كلٌّ منا في طريقه..

بعد عشر دقائق.. ماما: ها، إيه الأخبار؟..

- قديم..

- نعم؟!!

- قديم واللهِ. جاي في آلة زمن من ثورة ١٩١٩، ويمكن من قبلها بشوية..

- جديدة دي يا شمس.. ما شاء الله، كل مرة بتبهريني بسبب مختلف.. لحد ما هيأس. يعني مفيش أمل نقعد معاه مرة كمان؟..

- مفيش فايدة يا ماما. بقولك مش مناسب، ومش شبهي، وقديم، تقوليلي نقعد معاه مرة كمان؟!..

والله أنا كمان نفسي أفرح وأفرحك وارتاح من زن وورٍّ أمة لا إله إلا الله.. بس هعمل إيه؟ أتجوزه ونفضل قاعدين في سكون وهدوء زي ما هو بيقول؟

انتِ عارفة، أنا متخيلاه قاعد في بيته ازاي؟ زي صالح سليم في الشموع السوداء قدام دفاية في أوضة كئيبة ترمي فيها الإبرة ترن.. والله لو في أمل واحد في المية كنت قولتلك وريحتك.

- أنا بجد عمري ما هعمل في بنتي كدة..

بعد ٣٠ سنة..

استيقظتُ في التاسعة صباحًا.. نظرتُ للسرير الخالي بجانبها، وعوجتْ شفتيها.. أمسكتْ بصورة أمها بين يديها.. وابتسمتْ:

سافر يا أمي ليبحث عن نفسه.. تخيلي؟! ما زال يبحث عن نفسه لعشرين سنةً كاملة. قرب أن يقابل وجهَ كريم، وما زال يبحث عن نفسه. لو كان يبحث عن إبرةٍ في كومة قشٍّ لكان وجدها..

يرنُّ جرس هاتفها النقَّال..

ڤيديو كول، هذا ما تجيده بشدةٍ.. الاتصال اللاسلكي.

- ألو..

- أيوة..

أنا بكلمك وانا نازل الشغل معدنيش غير دقيقة.

- طب هو حد جه جنبك يا كابتن ولا قالك اتكلم؟!

- بلاش لماضة. عاوزك ومش فاضي للمناكفة..

- قول يا سيدي.

- معاكي فلوس؟

- يعني.. الدنيا ماشية..

- كويس، عشان المرتب لسة منزلش فهتأخر عليكي شوية..

- خير.. خير.
- دايمًا مستحملاني..
- أكيد، أمَّال إيه!..
- باي.
- باي.
الزواجُ حقًّا حقق لي الاكتفاء المادي والعاطفي. يا لها من صفقةٍ رابحة!
يللا، الحمد لله.. ابتسمتْ ثم همَّت بالقيام من سريرها..
ذهبتُ لأوقظَ عصفورتي من سُباتها العميق، لأجدها أمام شاشة هاتفها، تفترشُ كنبة الليفنج كسنجاب الأرض في البيات الشتوي..
- يا شمس، حرام عليكي. قومي البسي. المقابلة كمان ساعتين.
- يا شمس، مش عاوزة اشوف حد..
- اسمي ماما. قولي يا ماما.
- يا ماما، مش عاوزة اشوف حد..
- ده مستقبلك. دي حياتك يا بنتي. انتِ عاوزة تموتيني من غير ما اطَّمن عليكي! ده سادس معاد نفوته.. مش هنضيع الإنترڤيو ده كمان. هتضيعي مستقبلك عشان مكسِّلة؟! قولتلك بدل المرة ألف إن الست مبينفعهاش إلا قرشها؛ لا راجل بيدوم، ولا أم بتعيش.. يا تلبسي وتروحي بدل ما تلبسي.
لبستي!
لتنهض في جزءٍ أقل من الثانية، وترتدي ملابسها، وتخرج في دقائق.

التَذكرةُ التاسِعةُ

الطَّريقُ

بقلم: رانيا بيومي

الطريقُ

ممتدٌّ إلى ما لا نهاية، أو على الأقلِّ هذا ما أشعرُ به..

الشمس تتوسط السماء وتغمرُ الكون كله بلا هَوادة ..

تخترق أشعتُها الأسفلت فتنعكس على هيئة بُحيراتٍ صغيرةٍ من الماء، تجعلُني أوشِك أن أطلب من زوجي الانتباه، ولكني أتراجعُ في اللحظة الأخيرة حين أُدرك أن ذلك لم يكن سِوى سرابٍ بفِعل السِّهام الذهبية التي تُطلقها الشمس على الطَّريق.

على جانبي الطَّريق المُمهَّد تظهر الصحراء الشاسِعة.. ألتفتُ إلى يميني فأرى تلك التكتُّلات العُشبية الجافة التي تتشكَّل على هيئة أشجارٍ كُروية الشكل، بفِعل رياح موسم الخريف الماضي، ثم تستقرُّ في مكانٍ ما في الصحراء الشاسِعة.

قابلتنا الجبال أوَّل الطريق.. جبالٌ مُلتوية في صمودٍ عجيبٍ.. كأنها حِصن منيعٌ لما يمرُّ بينها.. ألوان الجبال متدرجةٌ بدايةً من الأحمر القاني وحتى الأصفر التُّرابي.. تعجبني كثيرًا أشكالها، ولكنها تضعُني في حالةٍ من التوتر تجعل قولوني العصبيَّ ينقلب عليَّ بلا رحمةٍ.

ضيقةٌ هي تلك الملفَّات بين الجبال..

يقود زوجي السيارة مسرعًا ولا يلتفت إلى عربات النقل الثقيل القادمة من الاتِّجاه المقابل..

يقود في تهورٍ شديدٍ، وكل مرةٍ تقابلنا واحدةٌ من تلك السيارات الضخمة.. يكون بيننا وبينها أقلُّ من نصف مترٍ.. أردِّد الشهادة في سرِّي، ثم يتضاعف توتُّري وتزداد سرعة ضربات قلبي في جوفٍ معلنةً عن خوفٍ شديد.

أتذكَّر وقتها صديقنا الذي انقلبت به السيارة على هذا الطَّريق.. أتذكَّر حجم مُعاناته في العمليات الجِراحية التي قام بها.. لم يستطع المشيَ مرةً أخرى إلَّا بعد أشهرٍ طويلة.. رافقته زوجتُه خلال تلك الفترة في المشفى، ولعبت دورًا أساسيًّا في تعافيه.. بعد الله سُبحانه وتعالى.

يأخذُني عقلي إلى بعيدٍ.. إلى تفاصيل حياة ذلك الصديق.. أقارنها بتفاصيل حياتي.. هل إذا مررتُ بنفس وضع الزَّوجة كنت سأفعل نفس الشيء؟ هل كنتُ سأراعي زوجي بنفس التفاني الذي قامت به زوجتُه؟

تذكَّرتُ يوم أن طلب مني الطبيب التوجُّه إلى المستشفى لعمل عملية استئصال المرارة.. وقت أن كانت ابنتي -التي تجلس الآن في المقعد الخلفيِّ للسيارة- لم يتجاوز عُمرها السنة الواحدة.. كان ذلك منذ حوالي ثلاث سنواتٍ.. وقتها شعرتُ بالتوتُّر الشديد.. انتابتني نوبةٌ من نوبات الهلع التي أصبحت صديقًا سخيفًا يزورُني في أوقاتٍ غير مرغوبٍ فيها.. لم أكد أنسى تعب العملية القيصرية في ولادة ابنتي، حتى بُليت بعدها بالتهاب المرارة!

لن أنسى صبيحة يوم عودتي من المُستشفى؛ فقد كان الجُرح يؤلمني كثيرًا مع كل نفسٍ أتنفسُه. وقتها بَكَت ابنتي الصغيرة.. كانت تريد تغيير الحفَّاضة وتناوُل إفطارها. لم أستطع وقتها أن أقوم من الفِراش وأنا أسمع بُكاءها. طلبت من زوجي أن يتولى شئوننا الصغيرة، فقط اليوم؛ نظرًا لتعبي، ولكنه رفض وأعطى لي ظهره ونام.. تحاملتُ على نفسي في القيام ببطءٍ شديد، وحملت ابنتي وآلام الجُرح تكاد تعصف بكِياني.. نزلت الدموعُ على وجنتيَّ صامتةً حارَّة.. وزوجي كما هو لم يتحرَّك من مكانه، ولم يُبالِ من الأساس، وأنا على تلك الحالة المُزرية.

لماذا أتذكّر كل تلك التفاصيل الآن؟! أشاهد الصحراء الشاسعة على مَرمى البصر؛ فتتجدَّد الذّكريات في رأسي.. أظل أفكّر في أحداث حياتي.. تأخذني الصحراء إلى عالمٍ واسعٍ من الخيال؛ فتجدني تارةً أفكر في ماضٍ مرَّ بكل أحداثه، وتارةً أفكر في مستقبلٍ مجهول! هل يا تُرى يحدث مع زوجي مثلما يحدُث لي؟ أم تُرى تفكيره كله متَّجه إلى القيادة والطريق؟ لا أجرؤ أن أسأله هذا السؤال؛ فهو غالبًا ما سيتندَّر عليَّ ويرمقني بتلك النظرة التي تعني أن ما أقوله سُخف وغير مفهوم.

مالت عليَّ ابنتي من مقعدها الخلفي، وهمست لي في أُذني أنها تريد دخول الحمَّام. الصغيرة خائفةٌ من ردَّة فِعل أبيها إذا ما تفوَّهتْ علنًا بهذا الطلب المشروع! ما هذا الذي أفعلُه بكِ يا ابنتي؟!

وأي حياةٍ تلك التي تعيشينها حتى تخافي من مُجرد طلب دخول الحمَّام وأنتِ لم تتجاوزي الرابعة من عُمرك؟! وبالفِعل.. ما إن أخبرتُ زوجي أننا يجب أن نتوقف في أقرب استراحةٍ حتى هاجَ وماجَ.. علا صوتُه وهو يقول لابنتنا: "ألا تستطيعين التحمُّل لبعض الوقت؟!"..

أخبرتُه أنها صغيرةٌ ولا يمكنها التحمُّل.. غاصت الحبيبة في مقعدها وتدلّى رأسها إلى الوراء في وجومٍ شديد.. واستمرَّ هو في التقريع المتواصل: "هذه نتيجة شُرب الماء المُتواصل.. ألم أخبركِ أن تكفّي عن الشرب؟ هأنذا مضطرٌّ أن أقف مرةً أخرى.. قلتُ لكم إني أريد القيادة دون توقُّف.".. وما إلى ذلك من عِبارات حادَّة لمُجرد طلب الطفلة لهذا الحقّ المشروع.

استمرت السيارة بالسير على الطَّريق. كنت مضطرةً لسماع هذا النوع من الموسيقى التي لا أحبُّها أبدًا..

هي خليط شاذٌّ من دقات الطبول الحادَّة مع نغماتٍ غير متسقةٍ مع بعضها.. لم يكن لي الحقُّ حتى في طلب تغيير نوع الموسيقى، أو طلب سَماع ما أحبُّ من أغانٍ.. وأحمدُ اللّه أن انتهت هذه المُوسيقى العنيفة، وجاء موعد الأغاني العربية القديمة.. أخبرتُه على استحياءٍ ألّا يدير محطة المذياع، وأن يدعَني أستمع لتلك الأغنيات التي أحبُّها:

"بس اما اشوفه وانا احكيله ع اللي جرى.. وامسح دموعي في منديله.. على اللي جرى"..

خفق قلبي بشدةٍ مع سماع الألحان.. عُدت إلى يوم كنت فيه طالبةً في الجامعة.. من أجمل فتيات الجامعة وأكثرهن تفوقا.. كنت مخطوبةً لذلك الشابِّ الذي تركني قبل ميعاد الفرح بشهرين.. ومع مُروري بحالةٍ نفسية مترديةٍ في ذلك الوقت، وافقتُ على الزواج من زوجي الحاليِّ.. كان به من المُواصفات ما يشجِّع على القبول.. فيما عدا صفة تردَّدت كثيرًا على ألسنة الناس الذين سألناهم عنه: "هو عصبي.. بزيادة".

عانيتُ من هذه الصفة، وكأنَّ مَن قالها اختصر طباعًا كاملةً في كلمةٍ واحدة.. لن يعرف معنى العصبية سِوى من يعيش مع شخصٍ بهذه الصفة، التي تؤثّر على كل تفاصيل الحياة.. يستيقظ من النوم وعلى وجهه غضبٌ شديد.. عند عودته من العمل لا يُمكنني الكلام معه؛ حيث إنه يتعصَّب كثيرًا إذا ما قمتُ بهذا.. حتى قبل النوم وقبل التدخين.. وفي كل وقتٍ.. عصبيٌّ إلى درجةٍ لا يُجدي معها الحوار المُشترك. تأثرت ابنتُه الصغيرة كذلك بتلك العصبية المُفرطة.. فهو نادرًا ما يكون أبًا حنونًا.. قليلًا ما كان يحملُها أو يُداعبها.. ولكني أنا مَن جنيتُ ذلك عليها باختياري له.

أسرعَ في الطَّريق حتى كاد قلبي أن ينخلِع.. طلبتُ منه التمهل قليلًا.. لم يلتفت لي ولم يبالِ.. استمرَّ في تلك السرعة المخيفة التي لا أعلم لها سببًا؛ فنحن في طريقنا إلى قضاء إجازةٍ عائليةٍ في مدينة الغردقة.. فلِمَ هذه السرعة الرهيبة؟!

أخذتُ أنظر مجددًا من نافذة السيارة حتى ألهي نفسي عن مشادَّة كلامية قد تحدث فورًا، إذا ما أخبرتُه مرةً ثانيةً بضرورة التمهُّل على الطريق.. شردتُ في حياتي معه وما آلت إليه من نفورٍ.. كلٌّ منا يعيش في عُزلة عن الآخر.. والصغيرة مُشتتة بيننا. لا تجمعنا أيةُ تفاصيل.. حتى وجبة الغداء التي حرصتُ على أن تجمعنا معًا، كان يرفضُها ويتعلل بأيِّ حُجة كي لا يجلس معنا على مائدة طعامٍ واحدة.. كلُّ همِّه هو العودة من العمل والنوم لمدة ساعةٍ أو اثنتين، ثم الذَّهاب لجالسة أصدقائه الذين كنتُ أغار منهم كثيرًا؛ لاستحواذهم على اهتمامه أكثرَ مني ومن ابنته.

أفقتُ من شرودي على صوت تأفُّفه العالي.. خطَرَ على بالي لوهلةٍ أنه يقرأ أفكاري.. سألته: "ماذا بكَ؟".. أخبرني ثائرًا: "ألا ترين تلك المطبَّات في الطريق؟".

تذكرت سريعًا أن كلًّا منا يعيش في وادٍ.. كلٌّ منا له دماغ مُختلفة عن الآخر.. ففي حين كان تفكيري يشرد في تفاصيل حياتنا، كانت دماغُه فقط مع الطَّريق ومطباته العالية!

يا لسُخرية القدَر الذي أوهمني للحظةٍ أنه قد يكون بدوره يفكِّر في حياتنا معًا، وكيفية تحسين العَلاقة بيننا!

"وع اللي جرى.."..

ومع استمرار الأغنية التي كادت تعصف بكلِّ ذرةٍ في كِياني، قررتُ فجأةً أن أمسك بيده الموضوعة على ناقل السرعة.. ولم أكد ألمسُها بنعومةٍ شديدة حتى قام بإفلاتها في حركةٍ عنيفةٍ غاص معها قلبي إلى أعماق جَوفي.. أرجعت يدي سريعًا إلى جواري، ونزلت الدموع على خدي من جديدٍ، ولكنني أخفيتُها وراء النظَّارة الشمسية التي أرتديها؛ حتى لا أُشعره أني أبكي.

عُدت من جديدٍ إلى سماع الأغاني الأجنبية التي أكرهها.. فقد سَخِر من الأغنية التي راقت لي، وقام فجأةً بتغيير محطة المذياع دون حتى أن يُخبرني أو يأخذ رأيي؛ "كفاية نواح ونكد.."... قالها في عصبيةٍ وهو يقوم بتغيير المحطة.

لماذا تغاضيتُ عن هذا الاختلاف الصريح بيني وبينه؟ لماذا عاندتُ أمي التي لفتت نظري إلى عصبيته الشديدة؟ لماذا رفضتُ الاستماع إلى الأصدقاء المُشتركين الذين كانوا يقولون عليه إنه مُحترم، ولكنه عنيفٌ وعصبي؟!..

ضربتُ بكلام الناس عرض الحائط، ولم ألتفتْ إلا للصوت الداخليِّ الذي كان يُخبرني بضرورة الزَّواج السريع؛ حتى أنتقم ممَّن كان خطيبي.. ومع سني الصغيرة وقتها.. كلُّ ما كنتُ أفكر فيه هو تركُه لي وأنا على وشكِ العمل على تفاصيل الزَّفاف.. تركُه لي وأنا أحبُّه وأخبره بذلك دومًا.. تركُه لي وأنا حافظة للعهد بيننا.. ولكلِّ تلك الوعود التي وعدها لي بأن يجعل مني أسعد إنسانة.

لم أنتقم منه.. بل انتقمتُ من نفسي!

اتخذتُ قرار الزواج وقررتُ أنَّا أفشل أبدًا.. كانت كل المؤشّرات تُنذر بالفشل، ولكني عاندتُ نفسي من جديد..

لم يكن وقت الخطوبة القصير -الذي لم يتعدَّ الستة أشهر- أسعد وقتٍ في حياتي؛ فقد كنت لا أزالُ أعاني من النَّبعات النفسية لترك خطيبي السابق لي.. كان زوجي شديد العصبية، وكان ذلك جليًّا.. ولكني عاندتُ نفسي من جديدٍ وأخبرتُها أن الوضع قد يختلف بعد الزواج.. ومرَّت ستُّ سنواتٍ على زواجنا، وازدادت طِباعه سوءًا.. لم أنجح في ترويضه مثلما كنتُ أعتقد.. بدأتْ خلافاتنا من أوَّل يومٍ، تشبثُه برأيه وعنادُه وتعصبُه أحالوا حياتي إلى جحيمٍ.. وزاد على ذلك طفلةٌ صغيرة لا ذنب لها في شيءٍ.. كلُّ ذنبها أني مَن اخترت والدها.

مَرَقت السيارة على الطريق بسرعةٍ عاليةٍ.. تمامًا كما تمرُق أيامي وتتفلتُ من بين يدي.. قامت سيارةٌ -ظهرت فجأةً من خلفنا- بتجاوزنا والسير أمامنا، وحينها أخذ زوجي يسبُّ ويلعن السائق الذي تجاوزه.. على مسمعٍ من الصغيرة، حتى إنه مرَّ بالسيارة إلى جواره مباشرةً، وكاد يصطدم به.. أشار له سائق السيارة بيده علامةً على أنه مجنونٌ..

رأى زوجي تلك الإشارة وأخذ يزيد من سرعة السيارة، حتى إن الموتور أخذ يُحدث دويًّا عاليًا، ولم يهدأ زوجي حتى قام بتجاوزه والسير أمامه.

هكذا هي حياتُه.. سلسلةٌ من الانتقامات الصغيرة المُثيرة للأعصاب. أحيانًا يستيقظ من النوم ولا يقول "صباح الخير".. فأُدرك أنه ينتقم مني من فِعل قد فعلتُه بالأمس.. هو هكذا، لا ينسى ولا يغفر.. لا يسامح ولا يعذُر.. كأنه مراهقٌ عنيد بدأ الشعر يغزو شاربَه.

عندما أكون متعبةً أو غير راغبةٍ.. يا ويلي إذا حدث هذا! أظلُّ أعاني من معاملةٍ سيئةٍ بعدها ولمدة أسابيع.. ولا يشفعُ لفعلي هذا أيُّ عُذر.. فأنا من عادتي القيام من النوم ناسيةً لِمَا حدث بالأمس.. أصحو بنفسيةٍ جديدةٍ متفائلةٍ بربِّها ومقبلة على الحياة.. ولكن مع عِشرتي له أدركتُ أن الحياة ما هي إلا سلسلةٌ متصلة من الأحداث التي يؤثّر أحدها على الآخر.. فما حدث بالأمس لا ننساه اليوم ولا الغد ولا حتى بعد فترةٍ طويلة!

أخرجتُ السبحة من حقيبة يدي، وظللتُ أسبِّح حتى نصل إلى الفندق على خير.. وفجأةً دوّى صوت فرملة السيارة دويًّا عاليًا، وذلك حين فوجئ زوجي بأن الطَّريق أمامه مغلقٌ لأن به بعض الإصلاحات، في حين أنه كان على سرعةٍ عالية.

انتفضتُ من على مقعدي.. والتفتُّ سريعًا إلى الوراء لأجد ابنتي حبيبتي ملقاةً من على المقعد.. فقد ارتطمت بمقعدي ثم وقعت على أرض السيارة.. صرختُ عاليًا وطلبتُ من زوجي أن يتوقف فورًا.. فأنا أريد أن آخذها في أحضاني وأطمئن أنها لم يحدث لها شيء.. تأفَّف من جديد، وصفَّ السيارة على جانب الطريق دون حتى أن يبدي اعتذارًا على ما فعله بنا من ارتطامٍ عنيف، ودون حتى أن يسأل على الصغيرة وعمَّا إذا كان بها أية إصابات.. كل ما فعله أنّ ترك السيارة وأخذ يُدخن السجائر وينفخ الدخان في الفضاء الفسيح.

هدَّأت من روع ابنتي التي كانت تبكي من الخوف.. أخذتُها بين أحضاني حتى استكان رَوعها.. ركب هو السيارة من جديدٍ دون أن يتفوَّه بكلمة.. أخذ يقود بسرعةٍ عاليةٍ وكأن شيئًا لم يحدث.

مرَّت ساعة من الزمان في صمتٍ مخيف.. ما لهذا الطريق لا يُريد أن ينتهي؟! اقتربنا من مدينة رأس غارب حيث انتهاء الصحراء وبداية العُمران..

لم ينتبه زوجي إلى أننا في منطقةٍ مأهولة، وأن هناك العديد من المارَّة يقطعون الطريق..

ظللتُ أردِّد رغمًا عني: "بالراحة.. تمهَّل.. هناك ناس".. صرخ فيَّ فجأةً صرخةً ارتجف على إثرها كِياني كله، كما ارتجفت الصغيرة التي بين أحضاني: "اسكتي قليلًا.."... قالها وهو يلتفتُ برأسه تجاهي.. وحينها مرَّت قطة مسرعةٌ من وسط الطريق، ولم يتمكن من أن يكبس على الفرامل، وقام بدهس القطة التي ظلَّت تنتفض وتصرخ في وسط الطريق.

وضعت يدي على عيني ابنتي حتى لا ترى هذا المشهد القاسي.. تحوَّلت بنا السيارة فجأةً إلى حلبة مصارعة..

- "أرأيتِ ماذا فعلتُ بسببكِ؟ كلام كلام.. حتى تشتَّتُ عن الطريق".

- "بسببي؟ أم بسبب طيشكَ في القيادة وعنفكَ على الطريق؟".

- "إذا لم تعجبكِ قيادتي تعالَي وأريني كيف ستصلين بنا إلى الفندق!".

- "أتسخر مني لأني لا أستطيع القيادة.. على الأقلّ إذا تعلمت فلن أفعل مثلما تفعل".

- "تعلَّمي وأفلحي ثم دعينا نرى.. لا تقولي شيئًا لا تستطيعين عمله".

- "أتعلم أنكَ جبارٌ؟.. بالفعل مفترٍ وجبَّار".

- "لا تسُبي وإلا قذفتكِ الآن بأقذر الشتائم".

- "أنا لا أسبُّكَ.. أنا أصفُكَ.. مُجرد وصف".

- "اسكتي الآن.. لا أريد أن أسمع لكِ صوتًا".

وهكذا كان الحوار بيننا.. دائمًا ما ينتهي بالسُّباب والصوت العالي.. وكأن صاحب الصوت العالي يكون هو المنتصر.. كثيرًا ما أخبرتُه أن صوتي عالٍ وأنني من المُمكن أن أقوم بالصُّراخ في وجهه مثلما يفعل هو بي.. وكان يردُّ عليَّ دائمًا: "حاولي أن تُعلي من صوتكِ وأنا لن أسكت لكِ".

لا أنكر أنني كنتُ أخاف من تهديداته.. صحيحٌ أنه لم يمدَّ يده عليَّ بالضرب ولا مرة، ولكنه دائمًا كان يهدد بشيءٍ لا أفهمه.. كان يعمل على إخافتي، ومع الأسف كنتُ بالفعل أخاف.

ساد الصمت من جديد.. لم يخترقه سوى صوت الصغيرة التي بدأت تتعب من طول الطَّريق، وبدأت في البُكاء حتى نامت بين يديَّ.. لم أسْلم بالطبع من الهَمْهمة والتأفُّف طوال فترة بُكائها.. حتى نامت بعد أن هدَّأتها بين أحضاني..

تلك المخلوقة الصغيرة الجميلة، التي لا يدركُ هو مدى عِشقي لها ولكل شيءٍ خاصٍّ بها..

أستمتع بأمومتي كاملةً معها في وقتٍ لا يعرف هو فيه معنى أن يكون أبًا.. أدللها كما لم تتدلَّل البنات قط.. أحنو عليها وأداعبُها وكأني أمها وأبوها في نفس الوقت.. فهي لا ذنبَ لها فيما هو كائنٌ بيننا من مشكلاتٍ.. أحيانًا كثيرة أفكِّر أن أطلب منه الطلاق وأكتفي بابنتي.. ولكنني كنت أخاف.. فمَن فشلت مرةً لا تودُّ أن تجرب الفشل مرةً أخرى.

وتظلُّ الفكرة تطاردني وابنتي بين أحضاني.. هل سأتحمَّل العيش بمفردي؟ هل سيظلُّ ينفق على ابنته؟ هل سيرحمُني المجتمع؟ هل سيقف

أهلي إلى جواري؟.. وغيرها من مئات الأسئلة التي لا أجد لها إجابة أبدًا.

أوشك الطريق على الانتهاء.. وأنا التزم الصَّمت، وأدعو الله ألا يكون هناك مزيد من المشكلات.. فيجب أن أدَّخر طاقتي لما بعد الوصول إلى الفندق.. فأنا أعلم تمامًا أننا ما إن نصل ونضع الحقائب.. حتى يقوم زوجي العزيز بإغلاق الإضاءة تمامًا في الغرفة لينام باقي اليوم واليوم الذي يليه، مُتحججًا بتعب القيادة على الطريق.. أمَّا أنا ومعي الصغيرة.. فيجب علينا أن نوفّر له هذا الجو من الهدوء الذي يمكّنه من أن يرتاح.. وكأننا أتينا إلى هذا المكان لينام هو وآخذ أنا الصغيرة لتنزل حمَّام السباحة، وأقوم برعايتها بمفردي.

كم كنت أتوق إلى حياةٍ عائلية سويةٍ.. أتحاور فيها مع زوجي.. يشاركني الآراء والتعليقات على كل شيءٍ وأي شيءٍ!..

كم كنت أتمنى لغة حوارٍ مشتركة.. أو حتى أن أرى على وجهه طيف ابتسامةٍ خفيف!.. كم كنتُ أرغب في أن يشاركني الحياة، وليس أن يكتفي بموقف المتفرِّج فقط!.. حياة سويَّة.. ذلك كل ما كنت أرجو من هذه الزيجة.. ولكنْ من الواضح أنه حتى تلك الرغبة استكثرها القدَر عليَّ.

نادتني حبيبتي في وسط شُرودي طالبةً مني السباحة معها.. قمتُ بالفعل وارتديت ملابس السباحة، وأخذت ألاعبها في المياه، ثم احتضنتها طويلًا وكأني أكتفي بحضنها عن العالم وما فيه..

مرَّت أيام الإجازة.. ومرَّت سنوات طويلة من العُمر.. الطِّباع كما هي.. لم تتغير، والجفاء يزداد يومًا بعد يوم.. كبرت الصبيَّة وكبر معها الصبيُّ

الذي يصغُرها بخمسة أعوامٍ.. كان نِتاج تلك الرحلة المؤلمة إلى مدينة الغردقة.. أصبح أولادي شبابًا مثل الورد، وكأن عوض الله جاء لي على هيئتهما.

نظرتُ إلى نفسي يومًا في المرآة، فوجدت الشّيب يزحف على شَعري..

مضى العمر، وأصبح ورائي.. ولكنه أثمر عنهما.. دَفّقة من الحُب والحنان تُدفئ برد أيامي، وتُسكن وحشة لياليَّ..

وأخيرًا أدركتُ.. لم تضع الحياة على الطريق هباءً.

التذكرةُ العاشرةُ

أسطورةُ القطِّ الفرعونيِّ

بقلم: سارة الجندي

كان عمو كريم صديق والدي إيهاب يعشق المزادات، وبالرَّغم من عمله في وزارة الرياضة، فإنه كان دائمَ البحث عنها والاستمتاع بحضورها؛ فهو يرى أنها الوسيلةُ الوحيدة لاقتناء ما يُسميه بالتُّحف والآثار بطريقةٍ قانونية وآمنةٍ، فكان يسعى للحصول على أيِّ قطعةٍ تُبهره ولو بسيطة.

وفي يوم الأربعاء، أي قبل يوم عيد ميلادي السَّابع عشر بيومٍ واحد، فاجأنا عمو كريم بشرائه قطةً من أحد المزادات.. نعم، قطة تتميزُ بلونها الرَّمادي، وعيونها الواسعة الجاحظة قليلًا، وبطء حركتها. ذكَّرتني بمقالٍ قرأته صباحًا عن القطط الفرعونية.

وفي ذلك اليوم كانت تزورنا طنط أمل صديقة والدتي ندى للاحتفال معنا غدًا بعيد مولدي، وعادةً عندما تزورنا تمكثُ في منزلنا يومين أو ثلاثة أيامٍ.

طنط أمل سيدةٌ أنيقة تهتمُّ بمظهرها إلى أبعد الحدود؛ تستطيع أن تميز وجودها في أيِّ مكان من رائحة عِطرها المُميز، على عكس والدتي التي توقفت عن النَّظر إلى المرآة بعد تركها العمل؛ فقد كانت طبيبة نساءٍ في أحد المُستشفيات، وبعد وفاة إحدى السَّيدات، فقدت أمي رُوحها المرِحة وأصبحت كتلةً من الصمت.

عمو كريم بسعادة: كل سنة وانتَ طيب يا يوسف. الحمد لله المزاد رسي عليا النهاردة وفُزت بالقطة الجميلة دي، وهي دي هديتي ليك السنادي.

أبي: قطة في مزاد! عِشنا وشُفنا! بس تسلم إيدك يا كريم.. هدية غريبة.. و.. وجميلة.

عمو كريم: انتَ عارفني يا إيهاب بعشق المزادات والتحف.

فاكر أول مرة اتقابلنا.. كنت عاوز احجز سفر لمزاد وقابلتك في الشركة.
أبي: طبعًا فاكر، وكنت مستغربك جدًا. كل مرة أقابلك بتحجز تذكرة سفر أسألك: مسافر ليه؟ تقولي: هحضر مزاد!!
أمي: كلفت نفسك ليه؟ أنا أعرف إن المزادات أسعارها بتكون عالية شوية.
عمو كريم: مش مهم دفعت كام، المهم إني أنا اللي خدتها. انتو عارفين القطة دي عاشت قد إيه؟ ولا كانت على أيام مين؟ دي كانت في قصر قديم، بس الحكومة حجزت عليه. بيقولوا عليها قطة مبروكة، وعمرها طويل.
ثم نظر إليَّ وسألني: المهم انتَ يا يوسف رأيك إيه في القطة؟
أنا: مش عارف. بس لما شُفتها خفت وقلبي اتقبض
منها.
أبي: لا يا حبيبي متخافش، دي مجرد قطة، والمفروض تشكر عمو الأول.
أنا: شكرًا يا عمو كريم.
عمو كريم: العفو يا حبيبي. عقبال مليون سنة.
طنط أمل ظلت صامتةً. اكتفت بالصمت والنظر إلى القطة. والقطةُ أيضًا كانت تبادلها النظرات.
مرَّ اليوم الأول ببطءٍ شديد، وأنا أرى أن القطة تُحملق في طنط أمل، وأقول لنفسي: "لا، أكيد أنا بيتهيألي".
في أولِ الليل استيقظتُ فزعًا من نومي على سماع صوت خُطوات أقدامٍ وصوت غريب يبدو كشخصٍ يتهامس. خرجتُ من غرفتي ودقَّات قلبي تعلو وتتزايد، والهمس يتلاشى رويدًا رويدًا، وبوصولي للصالة لم أجد أيَّ

شيءٍ، ولا حتى القطة. فجأةً انقطع النور ثم عاد في ثوانٍ.. والقطة موجودة!!

أكيدٌ أنا مرهق ولم آخُذ كفايتي من النوم بعد.

لم أستطع الحركة، لكنني قاومتُ حتى دخلت غرفتي وغلبني النعاس سريعًا، ثم صحوتُ على صوت أمِّي: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

هرولتُ مسرعًا إلى الصالة نحوَ صوتها، فسمعتُ أبي: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، يعني هي جاية تحضر عيد ميلاد يوسف فتموت عندنا!

أنا: مين دي اللي ماتت؟ معقول طنط أمل؟!

أبحث بعيوني فأجدُها جالسةً ساكنة على الكرسي، والدمُ يسيل من يديها، وأمي بجوارها منهارةٌ من الحزن والبكاء.

وجاءت عربة الإسعاف ونقلوا جُثمانها إلى المستشفى، وخيَّم على منزلنا الحُزن والفجع والصمت.. فهذا اليوم عيد مولدي.

وجاءت سيارة الشرطة لمُعاينة الشَّقة،

وسمعتُ الضابط يتحدث إلى والدي..

الضابط: أستاذ إيهاب، قولي بالتفصيل. تعرفوا المرحومة منين؟

أبي: صديقة زوجتي من أيام الدراسة. هي كانت عايشة هنا في القاهرة قبل ما ينقلوا ويعيشوا في الإسكندرية.

الضابط: وليه كانت بايتة عندكو.

أبي: زي ما قلت لحضرتك، هي من مدينة الإسكندرية، وكانت جاية تحضر عيد ميلاد ابني يوسف، والمفروض كنا هنبدأ تجهيز الحفلة من الصبح. حضرتك عارف تجهيزات عيد الميلاد..

بلالين وتورتة وغيره، فالأحسن إنها تبات علشان تكون معانا.

الضابط: يبدو كدة إنها حالة انتحار.

متعرفش انتحرت ليه؟

يعني كان عندها مشاكل أسرية أو غيرها؟ سمعت من زوجتك إنها اتعرضت لمشاكل تخلّيها تفكر تنتحر؟ وليه انتحرت عندكو بالذات؟

أبي: بالعكس، إحنا اتصدمنا جدًّا. هي كانت عايشة في مشاكل أسرية بسبب زوجها بقالها سنين، واتطلقت منه من كام شهر، وحياتها بقت أحسن دلوقتي، يعني صعب تفكر في الانتحار بعد ما حياتها اتحسنت.

الضابط: طب يا ريت تيجي القسم وتجيب المدام بكرة أو بعده علشان نقفل المحضر، وأهي تكون حالتها النفسية اتحسنت شوية بعد الصدمة الكبيرة دي.

الضابط ما كانش يعرف إن أبي وأمي كانوا شبه متفقين على الانفصال، من ساعة ما اتُّهم أبي في قضية رشوة ورُفد من عمله؛ فأبي كان أمين خزنة في إحدى شركات السفر، والأهم من ذلك شعور أمي

بامرأةٍ أخرى في حياة أبي، ومن ثم زاد الجفاء بينهما.

حياتي كئيبةٌ بائسة. كثيرًا ما فكرتُ في الانتحار رغم صغر سني. ليس لي أصدقاء.

هذا أبي مُرتشٍ وخائن، وهذه أمي الزوجة الضعيفة التي لم تعاتب زوجها على قبوله الرشوة، بل صدَّقته عندما أقسم ببراءته.. مسلوبة الإرادة، كلما احتجتُ إليها لا أجدها.

حفلة عيد ميلادي ما هي إلا تعويضٌ لي عن خُططهم للفترة القادمة، وكنتُ أعلم أن أبي كان متفقًا مع طنط أمل على الزواج بمجرَّد طلاقه لأمي التي لم تكن تعلم باتفاقهما.

اتصلت جدَّتي تخبرنا بقدومها، لكن أمي لم تستطع أن تردَّ عليها، بينما أبي أخبرها بما حدث وأنَّا تُتعب نفسها بالمجيء.

أنا أكره حياتي معهما. أريد العيش مع جدَّتي لأمي. هي منبع العطف والحنان بالنسبة لي.

كلنا يبدو علينا الفاجعة والحُزن إلا القطة، التي كان يبدو على ملامح وجهها الابتسام. نظراتُ عيونها اللامعة، وحركتها الخفيفة، على عكس ما رأيتها عليه أول مرةٍ.

وجاء الليل، وأمي لم تستطع الكلام ولا حتى تناول الطعام طوالَ اليوم، وأبي يحنو عليها ويحتضنُها.

حقيقةً لم تكن حياتُهم سعيدة ويملؤها الحبُّ، لكن كانت حياةً هادئة ينقصُها شعور كلِّ فردٍ بالآخر، والحنان والمودَّة.

كنتُ مذعورًا. جسدي النحيلُ ينتفض من الخوف، ولأول مرةٍ منذ كنت طفلًا رضيعًا.. أبي وأمي ينامان معي في غُرفتي؛ حتى نشعر بالأمان معًا.

استيقظتُ من نومي على أصوات الهمس مجددًا..

أحيانًا يعلو مُناديًا باسم حازم، ورأيت نورًا خافتًا يتحرك كأنه كشافٌ يأتي من خارج الغُرفة. ظللتُ في مكاني لدقائق، ثم أيقظتُ أبي الذي لم يصدِّق كلامي، وتوجَّهنا إلى الصالة فلم نجد شيئًا سوى شباك الصالة مفتوحًا، بالرغم من أنَّ أبي كان قد أحكم إغلاقه.

أبي: شفت يا حبيبي بنفسك؟ مفيش حاجة. بس أنا حاسس بيك، انتَ أكيد متوتر من ساعة اللي حصل.

أنا: ممكن يا بابا بس أنا..

أبي مقاطعًا كلامي: تعال بس ندخل ننام، وبكرة الصبح نبخر الشقة، ولو كدة نسافر يومين أي مكان نغير جو.

أنا: بجد يا بابا؟ يا ريت.

وفي فجر يوم الجُمعة، استيقظنا على أصواتِ سيارة الإسعاف وسيارة الشرطة، وهَرْولنا إلى باب الشَّقة، لنجد العمارة وقد امتلأت برجال الشرطة، ووجدتُ القطة تدخل شقَّتنا بمجرد أن فتح أبي الباب، وتنظر إلينا بكلِّ ثقةٍ وبنفس الابتسامة ولَمْعة العيون..

الأستاذ حازم، جارنا الذي يسكنُ في الشقة الأعلى من شقَّتنا، حاول الانتحار قُبيل فجر اليوم، ولكن الحمد لله لم يمُت.. هو الآن بالمستشفى، ولم تلاحظ زوجتُه أو أبناؤه أيَّ شيءٍ غريبٍ عليه الفترة الماضية.

جلستُ أنا وأبي وأمي نتبادل النَّظرات.. بدأ أبي الحديث بجملة: "غريب اللي حصل ده أوي.." .. وما إنّ بدأ أبي جُملته حتى وجدنا القطة وقد جاءت لتجلسَ بجوارنا وتتبادلَ معنا النظرات، كأنها جالسةٌ تراقبنا أو تسمع كلماتِنا. شعرتُ بخوفٍ يسيطر على قلبي ويشلُّ لساني..

القطة.. أشعر وكأنها السببُ فيما يحدث حولَنا.. لكنْ كيف ذلك؟!

أنا: بابا، انتَ قلت هنغير جو برة البيت.

أبي: أيوة يا حبيبي.. تحب نروح فين؟

أنا: تعالَ نزور تيتة ونبات عندها.

أبي: فكرة حلوة طبعًا. إيه رأيك يا ندى.

أمي بحزنٍ: موافقة طبعًا. هتصل عليها أعرَّفها.

أنا: وانا هقوم ألبس بسرعة.

غادرنا الشقة وتركنا القطة وجهَّزنا لها الطعام والماء، وبمجرَّد ركوبنا السيارة قلتُ لأبي:

بابا أنا خايف من القطة دي أوي، حاسس إنها السبب في الحوادث اللي حصلت.

أبي: إزاي بس يا يوسف يا حبيبي، انتَ أكيد مصدوم من اللي حصل، والخوف هو اللي مسيطر على تفكيرك دلوقتي.

أنا: علشان خاطري يا بابا، ريحني واتصل على عمو كريم اسأله.

أبي: حاضر، أنا هتصل بكريم أسأله على حكاية القط ده؛علشان أثبت لك إن مفيش الكلام ده، وكل اللي في خيالك ده مجرَّد أوهام.

(تنظر لي أمي بدهشةٍ وتعجب).

اتَّصل أبي بصديقه، وبعد غلقه للخط:

كريم قالي إنهم في المزاد لقبوا القطة دي بـ "الرُّوح المباركة".

أمي: يعني إيه؟ لو كانت القطة فيها روح كان أصحاب القصر اتخلصوا منها. في حاجة غريبة.

أبي: والعمل إيه دلوقتي؟

أمي: أنا رأيي نروح القصر.

أبي: عندك حق يا ندى، تعالوا نروح القصر يمكن نفهم أي حاجة.

ذهبنا إلى القصر لنجد "عسكري" يجلس أمام بوابته.

أبي: السلام عليكم.. إزيك يا دفعة.

العسكري: الحمد لله، اؤمر.

أبي: أنا كنت اشتريت قطة من القصر ده في المزاد، وحاسس إنها مش مرتاحة معانا وخايف تهرب.

العسكري: أيوة يا باشا، عاوزني أعملك إيه يعني؟

أبي: لو أمكن بس تشوفلنا شهادات القطة دي، أو كتاب عنها، أو حتى صور.

أبي مناديًا: تعال يا يوسف.

نزلتُ من السيارة وتوجهتُ إليهم ووقفتُ بجوار أبي.

أبي: أنا خايف القطة تهرب مننا، وابني اتعلق بيها.

العسكري: بص يا حضرت، هو ده ممنوع، بس علشان خاطر يوسف هسيبكوا تدخلوا القصر.. هتلاقي الباب مفتوح، ما هو أصلًا الفرش كله اتباع في المزاد، بس يمكن تلاقوا حاجة.

ودخلنا القصر..

صمتٌ وهدوءٌ مُظلم مع إننا في عز النهار!

وبالداخل نورٌ خافت.. لكنه غيرُ ثابت..

كان أبي يسبقنا بخطواته، وفجأةً تخشَّب في مكانه.. نظرنا فإذا بالقطة أمامنا، وعيونها تلمع مضيئةً، وتتحرك أمامنا كأنها تريد منا التحرُّك خلفها..

دخلنا غرفة المكتب، وتسلَّقت القطة الرفوف المتلئة بالكتب، وأسقطت كتابًا قديمًا جدًّا.. غلافُه من الجلد، وأوراقه بالية إلى حدٍّ كبير، ثم قفزت فوقه وركلته بقدمها؛ لينفتح على إحدى الصفحات، ولنجد صورتها ومقالًا عنها.. جلسنا على الأرض نقرأ هذا المقال الذي يتحدث عن أسطورة الإله استيت، وهو تمثالٌ مُحنط لقطةٍ فرعونيةٍ مقدسةٍ، وبقراءة تعويذة حضورها تحوَّل التمثال إلى حقيقة، وظهرت حوادث انتحار لأشخاص ليسوا طاهري القلوب، وكأنها تطهِّر المكان من شرورهم.

أبي: تُطهر المكان من شرورهم!! إزاي يعني؟!
وحازم جارنا، شر إيه اللي عمله؟!
أمي: يوسف كدة عنده حق. القطة دي شكلها السبب في الحوادث اللي حصلت.
وهنا كان يجب أن أُفصح عما فعلتُه دون قصد..
أنا: أنا آسف، والله مكنتش اعرف إن كل ده هيحصل.. أنا قرأت مقالة على النت بتتكلم عن قطة فرعونية بتقدر تساعد الشخص إنه يتخلص من الشر اللي في حياته، وبتحضر لما تقرأ تعويذة معينة، وكانوا كاتبين التعويذة دي في المقال، وأنا قرأتها، بس مكنتش أقصد. أنا أصلًا قرأته على أنه مقال خيالي.
أمي: خلاص يا يوسف، اللي حصل حصل. دلوقتي هنعمل إيه؟
أبي: أكيد فيه تعويذة تانية ترجع بيها القطة لتمثال.
أخذ أبي يبحث في الكتاب حتى وجد التعويذات في آخر الكتاب، ثم بدأ بقراءتها،
إلَّا أن أمي طلبت منه التوقف.. ونظرت حولها متسائلةً:
- هي القطة راحت فين؟
اختفت القطة مجددًا، وكأن ظهورها كان لتخبرنا عن نفسها فقط.
صوَّر والدي التعويذة بهاتفه، وبعدها خرجنا من القصر وجلسنا في السيارة صامتين لدقائق.
أنا: سامحوني، أنا السبب في كل ده.
ثم أمسكت بذراع أبي:
- وخايف أروح البيت.

أبي: انتَ مكنتش تقصد يا يوسف، ومتخافش أنا معاكم، وحقكم عليا لو كنت قصرت معاكم. سامحيني يا ندى. سمعت كلام أمل اللي كانت بتوقع بيني وبينك. انتو حياتي.. كل حياتي.

ولفَّ ذراعه الأيسر حول كتفي وقبَّل رأسي، ثم مد ذراعه الأيمن للمقعد الخلفي في السيارة ليقرِّب رأس والدتي ويقبِّلها.

ثم جاء اتصال لأبي عبر الهاتف.. كانت زوجة جارنا حازم التي أخبرت والدي بضرورة حضوره إلى المستشفى.

ذهبنا إلى المستشفى ودخلنا إلى غرفته، وبعدما جلسنا:

حازم: أنا قولتلهم يتصلوا عليك علشان لازم أتأسف لك.

أبي متعجبًا: تتأسف لي عن إيه يا حازم؟

حازم: أنا السبب في موضوع الرشوة. زميلك في الشغل اللي اسمه راضي بسبب غيرته منك إداني مبلغ، وقال لي أحاول أحطه في شقتك كأنك أخدته رشوة من عميل علشان تسرب له معلومات عن شركتكم.. أسعاركم وبيانات العملاء..

وغيره، علشان تترفد من الشغل، وأنا وافقت، وفعلًا أخدت منه الفلوس وحطيتها في سيارتك.

أبي: ليه يا حازم تعمل كدة، انتَ كنت أخويا؟

حازم: الفلوس طمعتني وعمتني، وهو أكد عليا إنك مش هتتئذي ولا هتتسجن، إنتَ هتترفد بس.

أبي: بس؟! هترفد بس؟! طب والفضيحة، ونظرات الناس ليا، ومشاعر ابني وزوجتي؟

حازم: أنا مفكرتش في كل ده.

أبي: وليه دلوقتي بالذات قررت تعترف لي؟

حازم: مش عارف إيه اللي حصل، بس فيه قط غريب لقيته في شقتي، وبعد ما شفته حسيت كأن فيه حد بيكلمني وبيقولي أنتحر علشان أتخلص من ذنبي، وبعدها لقيتني في المستشفى، وضميري واجعني، فكان لازم أعترف لك وأطلب منك تسامحني.

أبي: وأنا سامحتك يا حازم. أيوة، أنا عمري ما هنسى الوجع والفضيحة اللي عشتها بسببك، بس هسامحك.

غادرنا المستشفى وقد حل المساء، وأسدلت السماء عباءتها فوق رءوسنا من النجوم المضيئة، وأمي تمسك بيد أبي وتخبره أنها كانت واثقةً من براءته، وهو يخبرها أن المريضة التي تُوفيت هذا قدرُها، وليس من العدل أنه بوفاة مريض يموت الطبيب قهرًا، وطالما لم تقصد إيذاءها فلا داعي لأن تُكثر من لوم نفسها.

وصلنا المنزل بسكونه ورُعبه، وبدأت الهمسات والأنوار..

وبمجرد دخولنا المنزل.. قرأ أبي التعويذة؛ فتحولت القطة إلى تمثال، وقرر أبي أن يُرجعه إلى القصر كما كان..

ثم باع والدي الشقة وذهبنا للعيش عند جدتي.

أبي وأمي يشعران بالراحة والود والحنان لأول مرةٍ منذ سنوات.. وبفلوس الشقة قرَّر أبي أن يبدأ مشروعًا لكى يستطيع أن يعمل ويعوضنا عما مضى.

التَذكرةُ الحادِيةَ عَشْرة

نـجـاةُ قلبٍ

بقلم: هبة محمد كامل

بـدأ يومَه بنشاطٍ..

في خطواتٍ سريعة وعقلٍ مشغول في حصر ما لديه من مهامَّ في هذا اليوم، قدمَتْ له أروى مشروبه الصباحيَّ ممزوجًا بابتسامةٍ وقبلة عابرة، مُخلفةً إياه بين صفحات هاتفه، مطلعًا على آخر الأخبار.

أدرك من الوهلة الأولى تاريخ اليوم الذي حاول أن يُسقطه من ذاكرته خمس سنواتٍ، لكن لم تستطع السنون محوَها من خِزانة عقله.. ذلك اليوم الذي عاد فيه من عمله في الصَّباح بعد مأمورية عملٍ شاقة استغرقت يومًا كاملًا، فعملُه كمهندس استدعاه للسفر إلى إحدى المحافظات؛ لمتابعة أحد مشاريع الشركة.

تمنَّى أن تكون ساندي في استقباله، ولكنْ كان البيت خاويًا، فظنَّ أنها عند والدها كما كانت تفعل في غيابه..

لم يشغل باله كثيرًا، وقرر أن يغتسل من وُعثاءِ السفر ويتناول بعض اللقيمات ثم يتصلَّ بها، وهَمَّ بخلع ملابسه، فأفزعه رنين الهاتف..

تمهَّل بُرهة وقرَّر عدم الاستجابة، ولكن إلحاح الهاتف جعل قلبه يرتاب، وذلك الرقم المجهولُ أوْجسه خيفةً؛ فاستجاب أخيرًا، فأتاه صوتٌ غريبٌ يتأكد من اسمه ومهنته؛ فازداد رهبةً وهو يجيب بـ"نعم أنا" .

أعاد ضبط ملابسه، وغادر في عُجالةٍ يطوي الطريق طيًّا، حتى وصل إلى القسم. لم يفهم شيئًا من المُحادثة، فدار بخلَده العديد من السيناريوهات لا يعلم أيها أصح، وتلاقتْ نظراته معها جالسةً أمام الضابط في حالةٍ لم يرها عليها من قبل؛ فقال بلهفةٍ -واحتواها تحت ذراعه وقد أضاعت الدموع حُسن ملامحها، وتحوَّلت عيناها العسليتان للون الأحمر-: ماذا حدث يا ساندي؟

زاد توتره عدمُ ردِّها، فطلب منه الضابط الجلوس حتى يبين له الأمر.. فـ "ساندي" زوجتُه وابنة عمِّه مُتهمةٌ في جريمة قتل!!

اتَّسعت حدقتا عينيه، وفغر فاه، غير مدركٍ ما يقوله من كلمات..

بدأ يستعيد وعيه تدريجيًّا، فهو بالفِعل في قسم الشرطة، وساندي ماثلةٌ أمامه. جمع شَتات كلماته، لتخرج بحروفٍ متقطعةٍ: ق ت ل!

ردَّ عليه الضابط بصوتٍ حازمٍ متفحصًا وجهه:

لقد عُثر على جثة المجني عليه في مكتبه، عندما دلف ساعي المكتب ليستأذن في الانصراف، والذي شَهِدَ بأن زوجتك هي آخر مَن زاره قبل نصف ساعةٍ من العثور عليه، وأكَّدت كاميرات المكتب ذلك.

رأى كل شيءٍ في غير موضعه، وكأنه على مقعد دوَّار. أغمض عينيه محاولًا الهروب من هذا الكابوس، الذي من المؤكَّد أنه ليست له علاقةٌ بالحقيقة، ودارت بعقله أسئلةٌ متلاحقة: مَن فادي هذا الذي زارته ساندي؟ ولماذا قتلَتْه؟ وكيف؟ أسئلةٌ إجاباتها تقبع فقط في جوف ساندي.

مدَّ بصره تجاهها بحثًا عن إجابة، فلم يجد غير دموعٍ متساقطةٍ بلا رادع.. فسأل الضابط محاولًا التمسك برُوح الفارس الشجاع، دارئًا الأذى عن ابنة عمه وزوجته، وردَّ فور إجابة الضابط عن موعد حُدوث الجريمة، أنها كانت معه في ذلك الوقت.

أمر الضابط ببقاء ساندي على ذمة التحقيق، حتى يصل تقرير الطبِّ الشرعي، وتبادَل يحيى النظرات مع عمِّه، عتابًا ممزوجًا بالشفقة عليه، بينما عمُّه لم يتنازل عن كبريائه، وأصرَّ كلاهما على البقاء معها حتى وصول التقرير، الذي وصل بعد ساعاتٍ مرَّت كسنواتٍ طويلة، موضحًا أن

المجني عليه تُوفيّ إثر هبوطٍ في الدورة الدموية، وليس هناك شبهةٌ جنائية.

انفضَّ الأمر وبقيت الغُصة في حَلْقه تُمرِّر طعم أيامه القادمة؛ فهي في نظره خائنة ولو برَّأها ألف قاضٍ، وتوسُّلات والديه بتطليقها تتصادم مع نظرات عمِّه وكلماته الصامتة بألَّا يفعل، وقد حاول أن يفهم منها حقيقة الأمر، فباحت بأنهما مجرَّد أصدقاء، وأنها ذهبت لزيارته في المكتب، ولم ينَلْ منها الندم قيد أنملة؛ فمضى إلى منزل والديه تاركًا منزلها لتمكث فيه مع والديها؛ فليس له معها مكانٌ..

ودفن أحزانه ودموعه في غُرفته لأيامٍ.. وأقحمت ذِكرى ذلك اليوم عقله، يومٌ اجتمعت فيه الأسرتان، ومكث هو وساندي في الشُّرفة بعض الوقت..

تحدَّثا في مواضيع شتى، تطرقتْ إلى فكرة الزواج، رغم أنه لم يشغل عقله وقلبه بمثل هذا من قبل، ولكنَّ رغبة ابنة عمِّه في الزواج منه فاجأته، وما لبثت أنّ جذبته من يده للدَّاخل؛ لتعلن للحضور رغبته في الزواج منها، فباركَ الجميع لهما، واحتلَّ اللون القُرمزي مكانه على ملامح يحيى مصحوبًا بالصمت.. إلَّا من ابتسامةٍ لم يعلم إن كانت خجلًا أم قبولًا، وتكفَّل عمُّه بالكثير، وتمَّ عَقد القران في غضون شهورٍ قليلة..

مرَّ عام بعدها على زواج غير مستقرِّ الحال، فكان اهتمامها الأكبر بعَملها ذي الراتب الوهميِّ، واهتمَّ هو أيضًا بعمله؛ فكانا لا يلتقيان إلا على مائدة والدتها التي أخذت على عاتقها إعداد الطعام كلَّ يوم دون كللٍ أو ملل، لينتقلا إلى منزلهما في موعد النوم، ممَّا شكَّل إطارًا لصورة تبدو رائعةً لكل ناظر.. جوفاءَ من كل حُب وودٍّ..

ولكنه أبقى على ذلك الرباط رغم ما به من ثقوبٍ وشُقوق، كان آخرها ذلك الحادث. فكّر جديًّا في الطلاق، ولكنها ابنة عمِّه، وسُمعتها وشرفها يمسَّانه..

وبعد عدة شهورٍ صَبَر فيها حتى يطوي الزمان ذلك الحادث، طلَّقها بعد أن عاش حياةً بلا روح، ولكنه أفاق من تلك الصفعة الدَّامية التي أصابته، معلنًا تمرُّده على كل شيءٍ، ولكنَّ ساندي شعرت بالإهانة،

وأرادت أن تردَّ الصاع صاعين؛ فرفعت القضية تلو الأخرى لتأخذ حقوقها بعد الطلاق، ولكنْ ولأول مرةٍ وقف والدها ليصدَّ الهجوم عن ابن أخيه، ولتوقف هذه المهزلة.

ركَّز كل همِّه في عمله. كان قد وصل لمكانةٍ مرموقة، تعرَّف وقتها على أروى، وحاول بشتَّى الطرق أن يُقصيها عن تفكيره، ولكنَّ سهمها أصاب قلبه في غفلةٍ من عقله؛ فتكبَّل برباطٍ مقدَّس تمنَّى لو كان منذ أعوام.

التَذكرةُ الثانية عَشْرة

هَمسُ الأجنَةِ

بقلم: ريم جمعة

همساتٌ يتردَّد صداها في عقلي.. تصل إليه عبر أثير الحبل السّري..

طريق الوَصْل بيني وبين هذا الشيء الذي ينمو في رَحمي،

ولا أعرف الكيفية للخلاص..

لقد نبذتُه للمرة الرابعة؛ كُتل من اللحم والدم انسابت من بين فخذيّ دليلًا على موته، لكنه ما لبث أن نما مجددًا، وسط فَرح المحيطين، وقلق زوجي، ودُعري اللامتناهي من هذا الشيء وصُراخه المتواصل بداخلي!

صُراخ مستمرٌّ يرهق رُوحي.. ساحبًا منها النور، مغرقًا إياها في ثُقب أسود يمتصُّ كل ما في قلبي من فرح. ينمو على سعادتي وتعبي النفسي، مُخلفًا هالاتٍ سوداءَ أسفل عيوني اللوزية، ونحولًا في جسدي الأبيض، ساحبًا منه اللحم، تاركًا عظامًا جوفاءَ يكسوها الجِلد المُتقشف من قِلة ترويته؛ لكُرهي كل شيءٍ في الدنيا، ورُهدي التامِّ فيها، ما دام هذا الشيء يتكوَّر داخلي.

مُتقوقعة على ذاتي في الركن القَصيِّ في غرفتي، جالسة في ظلامٍ دامس، أرتجف.. واضعةً يدي على رأسي؛ لعل الصمت يسود قليلًا فأرتاح لبُرهة..

"هل تعتقدين معرفتي لمجرَّد أنكِ السبب في وجودي؟". "وهمكِ يصوِّر لكِ أنكِ السبب في تعليمي، وأنا الذي خُلقت بالمعرفة الكاملة، الناطقُ بكلِّ لغات العالم. تُحضرينني لتَحُدِّي من معرفتي، وتلجمي لساني بلغةٍ واحدة، مُدعيةً أنكِ بفعلتكِ هذه كنتِ السببَ في تثقيفي! يا لكِ من حمقاء!".

أضرب رأسي في الحائط إلى أن ينزف دمًا مثل نزف كلماته في تلافيف عقلي.. "اصمُتْ قليلًا. أغلِقْ هذا الذي تتفوَّه به؛ فأنا على يقينٍ بأنه لا فمَ لك. اصمُتْ وارحم فؤادي، واشفع لفطرةٍ زُرعت بكل نساء الأرض قبل ولادتنا، فِطرة تشرَّبناها مع لبن أمهاتنا. حيث تهفو الرُّوح إلى قطعةٍ من جسدي تمرح أمامي، وأصبُّ عليها جام حبي وشعوري. ارحم ضعف امرأةٍ لا حيلة لها فيما كُوِّنت عليه".

أُلقيت على الأرض بقوةٍ لا أعلم كُنهها. هل هو السبب؟ أم أني أتوهَّم كما يخبرونني؟

أعلم أنها ستُخَلِّف كَدمة زرقاءَ بجوار العديد من الكَدمات المُزينة لجسدي.

سمعتُ صوته الجهوري يصمُّ أذني: "هل رَحمتِني أنتِ؟ تريدين إحضاري في مَهلكة الحياة؟! هل حقًّا ستُسقينني حنانكِ لحبِّكِ فيَّ، أم لأنانيتكِ المُفرطة بأن تُصبح لكِ دميةٌ تُشكِّليها كما تريدين؟ أن يكون لكِ امتدادٌ حتى لا تنقطع سيرتكِ من الوجود، وحتى لا تختفي جيناتكِ من نسل الحياةِ؟ تحفرين عُكازًا من خشب نموِّي حتى تستندي عليه عند عجزكِ وكبركِ. هل رَحمتِني من تلك الدنيا التي ستُحيلني رويدًا رويدًا لجثةٍ مقيتة لا عقلَ لها، تفعل ما يُملى عليها فقط خوفًا من العقاب؟

لبهيمةٍ تدور في ساقية العيش لتجد ما تسدُّ بها رمقها دونما الالتفات لحاجاتها المعنوية؟ لنسخةٍ مكررة من دُمًى صُنعت منذ الأزل لا تجديد فيها ولا تغيير؟ وإن قررَتْ دميةُ التمرُّد جُزَّت رقبتها، وأُخرج ما فيها من حشوٍ لإعادة تصنيعها من جديد! أخبريني.. أين الرحمةُ في تلك الحياة؟!".

أقضم أظافري إلى أن خمشتُ اللحم، غير واعيةٍ للألم الجسدي. كنت في بُعد آخر.. أرى كتلةً من اللحم لم تتخذ هيئتها بعدُ، وكأنها وحشٌ يركض

خلفي بمعولٍ يريد القَصاص مني! ممَّ تريد القَصاص؟ ولِمَ؟! كنت أصرخ وأنا أحدِّثه ليهدأ: "اسمع فؤادي الناطق باسمك فقط. فمنذ عِلمي بك احتللت كلَّ خلجةٍ من خلجاته. اسمع لنبضاته الحانية التي ستَقيك من كلِّ غدر الدنيا، رَ اتساعه الذي سيُحاوطك من كل حدبٍ وصوب.. مانعًا إياكَ من السقوط. لا أريد أي شيءٍ إلَّا أن تكون بخير. أن تحقِّق ما تريد. أن تسعد وتحيا، حتى لو كان مُقابل حياتكَ مماتي! فقط لا أريد إلَّاك، ولا أبغى أحدًا سِواكَ".

لُكزتُ في كتفي؛ فسقطتُ على ظهري. أسمع خبطاتٍ متوالية على باب غُرفتي، وخبطاتٍ متوالية بداخلي، مُخلِّفة ألمًا لا يمكن احتماله. أضع يدي لعله يحسُّ بلمساتي فيهدأ ما فيه من اضطراب، لكنْ هيهات..

زادته لمساتي غضبًا على هيئة انقباضات تُهلك حياتي، ساحبةً إياها من جسدي: "عن أي خيرٍ تتحدثين؟! وأين الخير فيما تقولين؟ وكيف ستأمنين غدر الزَّمن، وقِلة وفاء الأصدقاء؟ كيف ستُبعدينني عن خيانة الشَّريك، وهدر الصحة، وتعتيم الأفكار، وإغماء العقول؟ كيف ستُحيلين بيني وبين قوْلبتي بعادات وتقاليد المجتمع؟ أخبريني، هل ستظلِّين بجواري إن اخترتُ شيئًا لا ترغبين فيه؟ إن اتخذتُ شريكًا تكرهينه؟ إن كانت عقيدتي على غير دينك؟ إن كنتُ في الحياة كل ما ترفضينه رغم أنه أنا؟ أم سَتنبِذينني كما سَينبِذني الجميع..

وسَتعدِينني بالويل والعذاب في جحيم الآخرة، والمعيشة الضَّنك في متاع الدنيا؟ هل حقًّا ستتقبلينني حتى ولو كنت ماردًا جبارًا متكبرًا عصيًّا؟ إنكِ كاذبةٌ وتعلمين إنكِ كاذبة. كيف ستدعمينني وأنتِ لم تدعمي نفسك؟ كيف ستُرجعين حقوقي وأنتِ مهدرةٌ حقوقك؟ كيف سترسُمين حدود حريتي

وأنتِ بلا حُدود.. يرتع الجميع في أرضكِ ويعبث في سمائكِ، دونما أي اعتبارٍ لآدميتك؟ كيف ستأخذين بيدي لبرِّ الأمان، وأنتِ المقيدة بقيدٍ حديدي.. تُساقين من يدٍ ليد، فلا كسرتِ القيد ولا حددتِ الطريق؟! فاخرسي وأجهضيني وأحييني قبل أن تُميتيني".

ضللتُ طريق التفكير القويم. نظراتي غائمة. دموعي تريد الهُطول. جسدي يزداد انكماشًا..

يمكنك وضعُه في صندوق لا يزيد عن ربع مترٍ. أدعو الله الفكاكَ من هولِ ما أنا فيه. أرجوه ألّا ينفتح باب غُرفتي قبل الانتهاء من تلك الجريمة التي تتشرَّب ذكرياتي السوداء، وتلفِظها في وجهي كمادةٍ كاوية تُهلك كل ذرَّة أمل، وتُعميني عن البهجة: " بل سأحارب لأجلكَ كل الدنيا. ستكون درعي وسأكون جيشكَ. ستكون مصدر قوَّتي وسأكون صمام أمانكَ. سأكتمل بكَ لأجعلك كاملًا. يقال إن المرأة تكون كالقطة الوديعة التي تدور في فلكِ مالِكها إلى أن تُنجب؛ تتحوَّل حينها إلى لبؤةٍ تدافع بضراوة وشراسة عن وليدها، وتفتك بمَن يحاول فقط الاقتراب منه. هذا الصمتُ سيُحال لصوتٍ جهوري يُخرس كل لسانٍ يحاول أن يلوك أخبارك. تلك النظراتُ المنكسرة ستصبح جَمراتٍ تحرق كلَّ مَن يزدريك. سأكون أمامكَ وخلفكَ وبيمينكَ وبشمالكَ ومن تحتك، وسيكون الله فوقكَ يحميكَ ببركة دعائي لكَ.

سأكون كموج البحر في ليلةِ صَفاء، يحملكَ لتصل لُمرادك دونما عناء، وسأهيج في وجه كلِّ العقبات التي بحياتكَ، مُغرقةً إياها أمام هَدْر أمواجي. صدِّقني يا مُهجة الفؤاد.. ما لي حياةٌ إلا بك".

يدٌ حاوطت عُنقي، لا أدري من أين ظهرت، رَفعتْني في فراغ الحياة، وأسقطتْني بكل قوَّتها أسفل السرير، داكّة عظامي ببعضها، مُصدرةً قرقعة غريبة، لا تنمُّ إلا عن كسرٍ في مكان ما بهيكلي العظميِّ:

"ألم أقل لكِ إنني هنا بقوة أنانيتك؟ فقط مجرَّد حجةٍ أو أمنية لعلَّها تغيرك.. وما أنتِ بمتغيرةٍ، بل ستُسقينني الخنوع من ثديكِ، آملةً أن أكون السببَ في صفاء جوِّ منزلكِ من مُشاحنات زوجك، لعلَّه بإحضاركِ الخَلَف يرضى عنكِ ويحيد عن تصرفاته المهينةِ بحقكِ من سبٍّ ولعن وضرب.. لا تُعامَل الحيوانات كما تُعامَلين بهذا المنزل. يا لحقارتك!، لم تلتفتي ولو لبُرهة يسيرةٍ.. ما هو مصيري وسط تلك الحروب الطاحنة الدائرة بينكما؟ كيف سأكون سويًّا في أسرة لا تعرف معنى السواء؟!

كيف سأكون رحيمًا في بيت طُردت منه المودَّة والرحمة، ولُفظت من بين جدرانه؟! كيف سأركز على مستقبلٍ لا أتخيل إلا السوادَ لونًا له، والخرابَ يحاوط كلَّ شبر فيه، والعفن يُغطي طريقه؟! أنتِ لم تريدي طفلًا، بل ترغبين بمعجزةٍ قد تُكسيكِ رداء القوة، متناسية أن القوة لا تُكسى..

بل تنبتُ من داخل الإنسان نبتًا، وتخرج وتُثمر بفِعل الإنسان ذاته لا بفِعل الغير. أنتِ بلغ الحُمق منكِ مبلغًا بولعكِ بأن تكتملي بي.. وهل يكتمل الإنسان إلَّا بخصاله وعقله وأخلاقه؟! لمْ تُفكري: هل حقًّا أرغب بإكمالك، أمْ بالانسلاخ منكِ ومن صِلتي بك؟.. من قهركِ بزواجكِ من شخصٍ تُبغضينه ولا تُطيقينه.. فقط لإرضاء والدك! كيف تُحضرين طفلًا يكون هذا والده؟! كيف تتوقَّعين أن يكون نسل الشيطان ملائكة؟! بل سأكونُ مثله.. حنظلًا يُمرِّر حياتكِ.

شوكةٌ عالقة بحَلّقكِ تُريدين لفّظَها ولا تستطيعين. عَلَقه تمصُّ كل ألوان الحياة منكِ، تاركةً إياكِ كشبح رَمادي لا هيئة له ولا ملامح. اكسري شوكتي قبل نموُّها.

اجتثّي الحَنظل قبل توْريقه. انتزعِي العَلَقة وادعسيها أسفل قدمكِ، علّكِ تبرئين. تمرَّدي على كل ما أشبعوا رُوحك به. أنقذي روحًا معذبةً وأطلقي حريتَها قبل ميلادها".

قطراتُ دماءٍ تنسلُّ من بين أصابعي.. أحاول أن أعيدها لمكانها، لكنَّها ترفض الانصياع لأوامري. أنهارُ وتنهارُ الأنهار من عيوني على خيبتي: "لا تتركُني. عُدْ من حيث أتيتَ. اتُمُ وتحدَّ الكون، وافرضْ نفسكَ على الجميع. حارِبْ لأجل تحقيق قدَرك. اسْطُ بأحلامكَ على رؤية الجميع لكينونتكَ. كُنْ أنتَ ولا شيء إلا أنتَ. ارسُم طريقكَ، واكسِرْ ممحاة الجميع التي تُريد تعديل ما تخطُّه يدك. كن جبارًا قويًّا ما دُمت لم تؤذِ أحدًا، لكنك فقط تُريد انتزاع حقكَ من فمِ الحياة. أرجوكَ لا تُسقطني من حساباتك كما أسقطني الجميع. سأكون لكَ في الدنيا معينًا، وتذكرة مروركَ في الآخرة.. سأكون صراطكَ المُستقيم.. لكنْ فقط كُن معي".

شلالٌ أحمر اللون قانٍ يعلن نهاية اللعبة، ويضع كلمة النهاية في قصة ما قبل النوم:

"آهٍ.. لِمَ ذكرتِ الآخرة؟ لِمَ ترغبين في إلقائي في سعير الدنيا، لآتي للآخرة، فلا أعلم أين سأكون: جنة نعيمٍ، أو في قاع الجحيم! لِمَ تحاوطيني بملائكةٍ غِلاظ شدادٍ يكتبون كلَّ ما أفعله..

يعدُّون عليَّ أنفاسي. لِمَ تدفعينني من رِحاب الحرية لمخيطٍ من نار يحاوط جسدي؛ فلا أعلم هل سأمزعه أم سيكبلُني ما حييتُ هنا أو هناك في عالم

ما بعد الحياة، حيث تكون الحياة. وعن أي حروبٍ تتحدثين؟! ألم يكفِ ما في هذا الكوكب من حروبٍ مُستعرة تُهلك النسلَ والحَرث؟! وهل حقًّا هناك حقوق في كونٍ مَهدور الحقُّ فيه، مكسور ميزانُ العدل فيه، مسروقة كِفَّتاه؟! جفَّ حِبر قلمي قبل أن أولد، فكيف سأرسُم طريقًا محفورًا على جبيني قبل مولدي، كوشمٍ لا يمكن إزالتُه إلا وتركَ أثرًا وندبةً لا يمكن الشفاء منها؟! لن أكون ما تُريدين مني أن أكون، بل سأكون انتقامكِ من نفسكِ التي تُجبركِ على السير بقدمٍ عارية داميةٍ في طريق النساء. سأكون تمردكِ على زوجكِ بأن تُنهي كل أمل له في هذا الامتداد، وتلك "العزوة" مَدعاة التفاخُر بين الرجال.

سأكون سيف الحقِّ الذي سأجزُّ به كل السعادة من حياة أهله، لاستحقاقهم ذلك؛ فلولا تربيتُهم لهذا الأنانيِّ لَمَا وُجد هذا الوحشُ الكاسر الذي يتلذذُ بكسرتكِ أمامه. سأجرِّد أهلكِ من كلِّ أقنعة المحبة والخوف عليكِ، ليظهر وجههم الحقيقيُّ بأنَّ الفتاة عارٌ لا ينتهي إلا بزواجها، كهَمٍّ ينزاح من على أكتافهم، غير مُبالين بمصيركِ أو أحلامكِ، ولتمُتْ أمنياتُكِ.. المهمُّ أن تتزوجي. أشكركِ.. حقًّا أشكركِ؛ فبفعلتكِ هذه أثبتِّ حقًّا أنكِ أمٌّ رفضَتْ إحضار كائنٍ آخر تلهو به الحياة.

قطعتِ خيط العروس بيدكِ لتحريرها. رفضتِ إنجاب معذَّب آخر في دروب الدنيا اللعينة. أحبكِ أمي.. وسامحي همسي؛ فلولاه لَمَا أقدمتِ على إحيائي، ولاستمررتِ في قتلي كلَّ يوم. ألقاكِ أماه يوم اللقاء.. سأنتظركِ فلا تتأخري".

كُسر الباب، وكُسرت أمنيتي، وضاع الأمل في أمومتي، كما ضاعت نقودُ زوجي، وآخِر عينةٍ من مائه، الذي كان محتفظًا به قبل علاجه من مرض

السرطان الذي قضى على كل إنتاجه، فلم يكن معه من حَصادٍ إلا تلك العيِّنة، التي كان مصيرها كسابقتها داخل رَحمي، لعلَّها تروي أرضي في يومٍ ما، فتُنبت زرعًا يجني ثماره في هيئة الولد..

سقط بجواري غاطسًا بيده في الدماء المنسالة.. يُقربها من أنفه.. يتشممُ رائحتها، بدموع مَن خسر حربه مع الدنيا، وسطَ عويل أمِّه.. وصُراخ والدتي بإحضار الطبيب.

رَحمني الله بإغماءةٍ أتت في وقتها؛ لترحمني من قتامة الموقف، وسَوداوية الوجوه المغبرة بسبب فعلتي النكراء..

أجهزة متصلةٌ بجسدي، وهَمْهمات من هنا وهناك لا أعي منها حرفًا.. اتهامات بأن إجهاضي كان مُتعمدًا وليس كما كنت أُخبرهم بأنه قضاءٌ وقدر.

كيف تُجهض الأم وليدها.. فلذة كبدها؟! كيف تخنق سعادتها بيدها؟! لكن ما كان ينمو ليس وليدي، بل نبتة شيطانية.. ما كانت لتصمُت إلَّا بخنقها واجتثاثها من جُذورها. جن هامسٌ صارخ لا يهدأ ولا يكلُّ إلا بتكميم فاه بشمعٍ أحمر ذائبٍ دليلًا على موته. ورغم ذلك، كنت أرغب في إبقائه لكنَّه أبى. صارَعني فصرَعني. قاومتُه فكسرَني. نهرتُه فخنقني محاولًا إزهاق رُوحي.. فأزهقتُ رُوحه جرَّاء فعلته.

صدري.. كأنه كانت تعتليه صخرةٌ صماء تقف حائلًا دون استنشاق الهواء.. ما لبثتْ أن تفتَتْ مريحةً إياي. قلبي كان كمَن قُبض عليه بيدٍ حديدية تمنعه من الخفقان. ما لبِثَ أن ذاب ذلك الحديدُ منصهرًا في إرادتي، حتى أصبحَتْ أكثر صلادةً.. تتلقف ما يفعلون ويقولون بلا مُبالاة، كأنه أنا ومن بعدي الطُّوفان.. أنا ولا شيءَ إلا أنا.

أصبحتُ خفيفةً كالريشة.. حرةً كالفراشة، ولمرةٍ واحدة في حياتي حققتُ ما أرغب فوق أنوف الجميع. أنا أنثى فقط.. أنثى. لستُ حملًا ولا ثقلًا ولا همًّا ولا عارًا. لستُ مستودعًا لماء الرجل فقط، ولطفله القرار. لم أُخلق فقط لأجلِه ولأجل تلبيةِ رغباتِه وتسليته.

أنا أُنثى أستحقُّ الحياة والحب. أُنثى أطمح في المودَّة والرحمة؛ لأهب الحياة طعمًا ولونًا. أُنثى إن أعطيتَها شبرًا تُعطك ذِراعًا، وإن أعطيتها ذراعًا تُعطكَ باعًا.. إنّ حبًّا فحُب، وإنّ كُرهًا فكُره. أنا أنثى.. خُلقت كاملةً لا ناقصةً ولا منقوصةً.

تحتويني بالكلام والمُعاملة الحسنة، لا بالقيد والحَبس والتلجيم.

كرهتُ الحياة فلفظتُها. كرهتُ الحياة، ولن أقبل بأن أهَبَ للحياة مُشوهًا آخر يسير في دروبها. رحمتُ أولادي الأربعة من حُممها المتطايرة كبركانٍ ثائرٍ لا يهدأ أبدًا.. يفتك كلَّ يوم بمئات المكلومين.. فقط من باب التسلية. جزيل حُبي لهمسكم أطفالي؛ فلولاه لما صِرتُ وما تجرأتُ وما قررتُ وما فعلتُ.

جسدي ينتفض. أصواتُ أقدام فارَّة في كل اتجاه.. تدلُّ على اقتراب الميعاد والأجل. قطراتٌ من دموع أمي تُبلل خدي لعلي أستفيق. ضرباتٌ متوالية على صدري.. علّه يرجع في قراره، ويبدأ في حركته ثانيةً.. صوت صفير مطوَّل يصدر من جهاز كان مغروسًا في جلدي بأسنانٍ حديدية.. يكتب كلمة الفصل في قصتي.. مُقيدًا اسمي في سِجل الوفيات، المعدومين من هذه الحياة.

أنظر للجميع من فوق المجهول. لا أعلم ما ينتظرُني ولا ما الذي سيحدث.

جاثين على رُكبهم. لا يرون إلا مُصابهم. تلك الجثة التي كانت تحتويني مُمددة على سريرٍ حديدي.. يقلبونني يمنةً ويسرةً ليكفّنوني. لم أرغب في رؤية المزيد؛ فلقد حضر أربع نطافٍ ساروا أمامي؛ فركضتُ خلفهم.. لعلي أجد خلف الحياة حياةً.

كاتبٌ لأوَّلِ مرَّة

بقلم الفنانة: مي محمد حمزة

وقفَتْ بين جموع الأشخاص الذين التفُّوا من حولها يصفقون، ويحاولون اقتناص توقيع وإهداءٍ لهم فوق غلاف روايتها الأخيرة، ويهنئونها بالنجاح الذي حققته الرواية، وكونها فور صدورها حققت أعلى المبيعات بين فئات القرَّاء بمختلف مستوياتهم وأذواقهم؛ وذلك لأن تلك الرواية كُتب عليها: "مستوحاةٌ من أحداثٍ حقيقيةٍ".

طوال حفل توقيع روايتها وهى تحاول تصنُّع الابتسام والفرح؛ فبالرَّغم من نجاحها.. لن تنسى ما مرَّت به من تجربةٍ كانت هي نواة هذه الرواية، والمحرك الأساسي للأحداث.

كانت تتلفَّت طوال الوقت حولها؛ علَّها تجد ما يدل على وجوده حولها. هي تشعر به.. تشعر بوجوده.. تعلم أنه موجودٌ ويراقبها من ركنٍ ما في القاعة، ولكنها لا تستطيع رؤيته.

وبينما هي شاردةٌ بين أفكارها وتهنئة المدعوِّين..

سمعت صوتًا يصدر من هاتفها الجوال دليلًا على استلام رسالة..

تنحَّت جانبًا بعيدًا عن الضوضاء، وفتحت الرسالة وقرأت: "مبروك نجاح الرواية. لا أستطيع ألَّا أكون موجودًا كالعادة دائمًا، حتى ولو برسالةٍ على الهاتف".

رفعَتْ رأسها عن شاشة الهاتف الجوال، وأخذت تبحثُ بعينيها عن صاحب الرسالة، ولكنها لم تجده؛ فشعرت بالتوتر والخوف، ثم اقتربت من صديقتها المقرَّبة ومنظمة حفل التوقيع لها وقالت:

ريهام، أرجوكِ حاولي أن تنهي الحفل بأسرع وقتٍ ممكنٍ؛ فأنا أشعر بإرهاقٍ وببعض الاضطراب من هذا العدد من الأشخاص.

نظرت لها ريهام في قلق: ماذا بكِ يا نهى؟ لماذا تغير لونُ وجهكِ هكذا؟ أحدث شيءٌ ما؟

ردَّت عليها مسرعةً: ليس هناك شيءٌ.. أسرعي فقط في إنهاء الحفلة حتى يتسنَّى لي الانصراف، وسأقصُّ عليكِ ما حدث فيما بعد.

هزَّت ريهام لها رأسها بالموافقة، ثم وقفت على منصَّة الحوار وقالت:

أعزائي القراء والنقاد، نشكر لكم حضوركم اليوم، وقد أسعدنا جدًّا تواجدنا معكم وبينكم، وكم أثلجتم صدورنا بكمٍّ الحب الذى شعرنا به بينكم ومنكم.. لكم منا كلُّ التقدير والحب، وعلى وعد بلقاءٍ آخر مع رواية أخرى للكاتبة/ نهى نوير.

خرجت نهى مسرعةً لتستقل سيارتها، ومن خلفها ريهام تُهرول وتنادى عليها:

نهى، انتظري سآتي معكِ.. ماذا بكِ؟

ركبتا السيارة وانطلقت نهى قاصدةً بيتها، وبمجرد أن دلفت الشقة ارتمت بجسدها على أقرب أريكةٍ، وتنهَّدت بقوةٍ، وأخذت نفسًا يتهدجُ كأنه نذيرٌ بالبكاء، وما لبثت أن جلست بجانبها ريهام ووضعت يدها فوق كتفها..

ارتمت بين أحضانها وهى تبكي بكاءً شديدًا بدون توقف، وجسدها يرتجفُ وينتفض، فأخذت ريهام تربِّت على كتفها قائلةً:

ماذا بكِ يا حبيبتي؟ ماذا حدث؟ لماذا هذا التحوُّل؟ هل أساء لكِ أحدٌ في الحفل؟ أجيبيني، لا تُقلقيني عليكِ.

أخذت نهى تهدأ رويدًا رويدًا، ورفعت رأسها وهى تمسح دموعها من فوق وجنتيها وقالت لها:

كنتُ أظنُّه لن يظهر ثانيةً بعد أن اختفى لمدة عامين، وظننتُ أنني أفقتُ من الكابوس الذي عشت فيه. أعلنَ عن ظهوره ثانيةً.. ذلك الوحش اللاآدمي.

نظرت لها ريهام في عدم فهمٍ ونطقت مستفهمةً:

مَن هذا الذي تتكلمين عنه؟ أنا لا أفهم شيئًا. أرجوكِ.. فلتهدئي وتقصي عليَّ حتى أستطيع مساعدتكِ. سأعدُّ لنا القهوة لتهدئي وتحكي لي كل شيءٍ.

وبعد أن أعدَّت ريهام القهوة، جلست بجانب نهى التي هدأت، وأشعلت سيجارتها ثم قالت:

سأحكي لكِ من أول الحكاية، حتى تعرفي سبب انهياري هكذا الآن؟

منذ خمسة عشر عامًا ومنذ أن التحقت بكلية الفنون الجميلة وحتى تخرَّجت، كان لي مجموعة من الأصدقاء المقرَّبين جدًّا، وهم: هناء ورشا وعادل ورامز، وكانوا أكثر الزملاء قربًا لي في الكلية وفي الدنيا كلها، حيث إننا لم نفترق حتى بعد تخرُّجنا من الكلية، وظللنا معًا يساند بعضنا البعض ونفرح لفرح بعضنا ونحزن لحُزن أحدنا، وإذا واجه أحدٌ مشكلة فكان باقي المجموعة يقفون بجانبه ويعملون على حلِّها له ومساندته. ولعب الحظُّ لعبته معنا؛ فالتحقنا بنفس الشركة للعمل بها على فتراتٍ متباعدة، فأصبحنا جميعًا نعمل في نفس المكان؛ فزاد ذلك من تواجدنا شبه اليوميِّ معًا.. وتشابكت بيننا العلاقات أكثر، فبعد سنةٍ من التخرج قام عادل بخطبة هناء..

كان كلٌّ منا له هواية بجانب عمله؛ فأنا كنت أهوى الكتابة، وكانوا يشجعونني دائمًا، وكان رامز يحلم بإقامة معارض للوحاته التي يرسمها، ورشا تعشق تصميم الملابس..

فتعاهدنا أن نقف بجانب بعضنا، ويساند كلٌّ منا الآخر حتى يرتفع شأن كل واحدٍ منا فيما يحبُّ أن يفعله..

بدأتُ أكتب القصير من القصص البوليسية التي أهواها، وهم يقرءون ما أكتب وينتقدونني ويقدمون لي الآراء، حتى فوجئتُ في يومٍ من الأيام برامز وهو يقوم بتعريفي برئيسٍ لدار نشر.. قد حدَّثه عني وعرض عليه بعضًا من كتاباتي التي كان يصرُّ أن يصورها ويحتفظ بها.

وقد تحمَّس صاحب الدار لي، وطلب منه أن يتعرف عليَّ، وبدأت مشواري بأول مجموعةٍ قصصيةٍ نُشرت لي وحققت قبولًا بين الناس كأول عملٍ لهاوية.

ومنذ تلك اللحظة أصبح رامز الداعمَ الرسميَّ لي. كان يقرأ كل حرفٍ أكتبه، ويهتمُّ بكل تفصيلةٍ وبكل حرفٍ، وكان في بعض الأحيان يترك ما وراءه من لوحاتٍ حتى يعطيني النصيحة في حبكة تلك الرواية، أو اقتراح عنوان لتلك.. وهكذا. وكنتُ أنا أيضًا أدعمه في كل معرضٍ يقيمه والترويج له..

وكذلك رشا بدأت مشروعها الصغير بتصميم بعض الملابس، وأخذنا نساندها ونروِّج لها ما تُصممه، حتى قررَتْ ترك الشركة التي نعمل بها؛ لتقوم بفتح الأتيليه الخاصِّ بها لتصميم الملابس، وقد دعمنا قرارها لأنه الأصلح لها.. وأصبحنا كتلةً من الدعم تتحرك معًا في كل مكانٍ..

حتى جاء اليوم الذي تغير معه كل شيء..

تعرفتُ على أحد أصحاب دور النشر للبدء في التجهيز لروايتي الجديدة، وكان شابًا غاية في الوسامة والثقافة.. مهندمًا، أنيق الملبس، ولبق الحديث، ذا شخصيةٍ جذابة.. ولا أنكر أنني أعجبت به من أول لقاءٍ، وهو أيضًا، ومع الوقت وكثرة اللقاءات بدأ يزداد بيننا التقارب والتفاهم، وبدأت تنبتُ بيننا مشاعر تختلف تمامًا عن التعامل في حدود العمل. وتزامنًا مع هذه الفترة، كان رامز الصديق المقرب جدًّا لي، فكنت أحكي له كل شيءٍ يحدث بيني وبين محمود. كنتُ أثق برأيه، وكنت أطّبق نصائحه في كل شيءٍ، فأردتُ أن يكون أول مَن يعرف كل شيء ويعطيني نصائحه كرجلٍ يفهم رجلًا مثله.

أردت أن أشعر بالطمأنينة بوجوده جانبي؛ فهو مثل أخي الذي لم تلده أمي.. ومرَّ الوقت، وتقدَّم محمود لخطبتي ووافق والدي وتمت الخطبة، ومنذ تلك الليلة تغيَّر كل شيءٍ.

بدأتُ أشعر بأن رامز قد تغيَّر. أصبح أكثر صمتًا. أكثر الأوقات لا يشاركُنا الكثير، ولا يخرج معنا كثيرًا كما كان، خاصةً عند تواجد محمود.. حتى لوحاتُه أصبحت أكثر كآبةً وتشاؤمًا وسوداوية!

وذات يومٍ قررتُ أنا ورشا الذَّهاب إلى الأتيليه الخاصّ به في فيلته؛ لنعرف ماذا به. لاحظتُ أن معظم لوحاتِه أصبحت تحتوي على نساءٍ جُردن من ملابسهن إلا قليلًا، ويظهر عليهن الألم والعذاب، وبأجسامهن جروحٌ تدمي، فنظرتُ له مستنكرةً وقلت:

لماذا أصبحت لوحاتُك هكذا يا رامز؟ لماذا أضحت كُلُّها تُشعرني بالألم والكآبة والتعاسة؟ ماذا بكِ؟ صارحني. لماذا تغيرتَ؟ اصدُقنا القول.. ماذا حلَّ بكَ؟

نظر إليَّ مبتسمًا بعين يملؤها الحُزن قائلًا:

إنني بخيرٍ. لا تقلقي. ولكنني أرى بعض الأحلام المُزعجة التي تؤرّقني، وأخرجها بين خطوط لوحاتي.

ردَّت رشا مازحةً:

أراك لا تنام الليل يا فنان. أظنُّك وقعت في حبِّ فتاةٍ ما. هيا، أجب.. أجب؛ فأنا أعرف المُحبين من أعينهم.

ردَّ عليها بصوتٍ مضطرب ونبرةٍ فيها الكثير من العصبية:

عزيزتي، أنا أحبُّ كل يومٍ أنثى جديدة. أحبُّ بطلات لوحاتي.. أعشقهنَّ وأعيش معهن حيوات مختلفة، وهذا كافٍ لي جدًّا.

لاحظتُ اضطرابه وتصبب العَرق من جبينه فحاولتُ تهدئة الجو وقلتُ له:

هذا من حُسن حظهن، وأعلم أنه سيأتي اليوم الذي سترسُم لي اللوحة التي أختارها.. وتوقّعها لي يا فنان (أكملتُ ضاحكةً).

فنظر إليَّ مليًّا وقال مبتسمًا:

لا تقلقي يا نهى، قريبًا سأرسمكِ. أنتِ نفسكِ لوحةٌ طالما تمنيتُ أن أرسمها.

لا أعلم لماذا شعرتُ وقتها بخوفٍ من كلماته، وكان وقعُها على مسامعي مخيفًا. أحسستُ أن نبرة صوته حملت الكثير من التوعُّد والغموض؛ فشعرتُ بالاضطراب وأشرت لرشا وقلت لها: هيَّا بنا يا رشا، لنتركِ الفنان ينهي لوحته، ولئنه ما لدينا من مشاوير، حتى لا تتراكم علينا.

والتفتُّ له هامسةً:

رامز، فليكن في معلومك أنكَ ستكون معنا الليلة. سنتناول العشاء جميعًا معًا اليوم، ولن نقبل بأية أعذارٍ.

فردَّ عليَّ مسرعًا: وهل سيكون محمود متواجدًا أيضًا؟

أدرتُ وجهي له مستنكرةً وأجبته:

لا، هذا عشاءٌ للأصدقاء فقط يا رامز.

فردَّ عليَّ بابتسامةٍ لم ترُقْ لي: حسنًا، سأكون في الموعد المحدَّد معكم.

أخذتُ يد رشا ونهضنا مُسرعين إلى خارج الأتيليه، ونظرت خلفي فجأةً لأرى رامز يراقبنا من خلف النافذة حتى ركبنا السيارة، وبمجرَّد أن تحركت بالسيارة قلتُ لرشا:

أنا قلقةٌ على رامز. إنه ليس بخيرٍ. أشعر بأن هناك شيئًا ما يحدث له.. شيئًا يأكل رُوحه ولا يصارحنا به. ليتني أستطيع أن أساعده؛ فلا أرغب برؤيته هكذا.

نظرَتْ لي رشا نظرةً يملؤها الخُبث، وأردفت: رامز يحبُّ يا نهى. حاله حالُ محبٍّ عاشق يتألم بسبب حبه.

رددت مسرعةً: ولماذا لا يخبرني لكي أساعده كما كنتُ أخبره عني أنا ومحمود؟

قالت باقتضابٍ: لأنه يحبكِ أنتِ.. وصمتَتْ!

ارتجف مقود السيارة بين أصابعي، وشعرتُ بالتوتر، وقلتُ لها: ماذا تقولين أيتها المجنونة. يحب مَن؟ أنا ورامز مثل الإخوة، ولا يمكن أن يكنَّ لي رامز تلك المشاعر.. هل جُننتِ؟!

قالت ضاحكةً: عزيزتي، جميعنا كنا نلاحظ نظرات رامز لكِ، ومن أول يومٍ تعرَّفنا عليه، وعندما تقاربتُما كنا نظن أنكِ أيضًا تُكنين له مشاعر مماثلة، ولكنكِ فاجأتنا جميعًا بأنكِ تُحبين محمود وستتزوجينه! وكانت الصدمة بالنسبة لنا أنَّ رامز كان يعلم كل شيءٍ، وكان يبارك خطواتكِ مع

محمود، فظننت أنني مَن أخطأت الفه.. ولكني اليوم تأكدتُ أنني كنت على صوابٍ.

كنتُ أسمعها وأنا شاردةٌ؛ لم أستطع الردَّ عليها. كنت أتساءل بداخل نفسي: هل يُعقل أن أكون آذيتُ رامز بدون قصدٍ إلى هذه الدرجة؟ هل فقدتُ بصيرتي ووصلت لهذه الدرجة من الغباء؟! ولكنني لم أشعر تجاهه بغير بمشاعر الأخوة فقط، ولا أستطيع خداعه.

وصلتُ أمام منزل رشا.. دعتني للدخول؛ اعتذرت لها.. تحججتُ بأني مرهقة وأودُّ النوم جدًّا، فودَّعتها وذهبتُ.

وصلتُ إلى بيتي وأنا أشعر بصداعٍ يضرب أنحاء عقلي، وإرهاقٍ شديد؛ فسلمتُ على والديَّ وأخبرتهما أنني أحتاج إلى النوم، ودلفتُ إلى حجرتي..

ارتميتُ على سريري وأنا تأكلني الأفكار والهواجس بأني أنا السبب فيما وصل إليه رامز. غفوتُ مكاني كما أنا بملابسي. لم أُفِقْ إلَّا على اتصال هاتفي.. فتحتُ عيني بصعوبةٍ لأرى مَن المتصل، فوجدتُه رامز.. فرددتُ مسرعةً:

ألو رامز، كيف حالك؟

ردَّ عليَّ قائلًا: الحمد الله.

هل تستطيعين الحضور للأتيليه؟ أودُّ أن أتحدث معكِ قليلًا، وسأعلمكِ بما حلَّ بي.. فلن أتحسَّن إلَّا بالكلام معكِ.

أجبتُه: أكيد، سأحضر حالًا. سأغير ملابسي، وسأكون عندكَ بعد ساعةٍ من الآن.

نهضتُ لأغير ملابسي، وكُلي سعادةٌ بأنه اتَّصل بي وسيحكي لي ما به، وسأكونُ بجانبه كما اعتاد هو دائمًا أن يكون بجانبي.

في غضون ساعةٍ كنتُ قد وصلت عند رامز.. رحَّب بي، وكان أكثر بهجةً من ذي قبل، وسألني ماذا أشرب، فأجبتُه: قهوة طبعًا؛ انتَ نسيت ولا إيه؟ فأجابني بضحكةٍ وغاب عني قليلًا.

أخذتُ أتطلع للوحاته حتى شعرت به خلفي يُمسك بفنجان قهوتي ويقول: تفضلي. أخذت منه الفنجان وجلستُ.. رشفت رشفةً بتلذذ وقلت:

دائمًا تقوم بإعدادها كما يجب. أنت أكثر الناس حبًّا لإعداد القهوة. لم أذق مثل قهوتك.

ضحك مجيبًا: خِلتُكِ نسيتِ طعم فنجاني يا نهى.

مرَّت فترة طويلة لم تأتي إلى هُنا وتشربي معي القهوة كما اعتدنا ونحن نناقش رواياتكِ ولوحاتي وأمور العمل والحياة.

قلتُ: نعم يا رامز، لقد مرَّ علينا شهران. أحسستُ أننا لم نعد كما كُنا، وكنت أشعر بالحُزن.. لماذا بعدَتْ بنا المسافات؟ ماذا حدث؟

وأنا أتحدث بدأتُ أشعر بأن رأسي يدور، وعيني تشوبهما سحابةٌ ضبابية. لا أرى وجه رامز جيدًا، فأخذت أمسح عيني بأصابعي لعلي أزيل تلك الغمامة، ولكن بلا فائدة، فقلتُ له: ما هذا؟ إنني لا أرى جيدًا! ماذا يحدث لي؟

سمعتُ صوته وكأنه يأتي من بئر بعيدةٍ يقول: لا تقلقي، ستكونين بخيرٍ.. ولم أسمع شيئًا آخر!

بعد فترةٍ من الوقت لا أعلم مُدتها أفقتُ من غفوتي.. وأنا أشعر برأسي يؤلمني، وجسدي لا يقوى على الحركة وكأنه شُلَّت حركته. شعرتُ بيدي

مُقيدتين.. أخذتُ أفتح عيني ببطءٍ. لا أرى إلا الظلام وضوءًا خافتًا يواجهني، يقف أمامه شبح شخصٍ ما لا أتبينُ ملامحه، وسمعتُ صوته يقول: ها قد أفقتِ أخيرًا. كيف حالكِ الآن؟

صرختُ فزعةً: أين أنا؟ وماذا يحدث؟ اقترب مني الشبح لتتضح ملامحه فإذا هو رامز!

صرختُ به: ماذا تفعل يا رامز؟ فكَّ وثاقي الآن. هل جُننتَ؟

ضحك ضحكةً يملؤها الجنون واقترب مني وقال: نعم جُننتُ.. جُننتُ يوم لم تشعري بما أكنُّه لكِ من مشاعر..

جُننتُ يوم لم تشعري بحُبي..

جُننتُ عندما قدمت لكِ كل شيءٍ ولم أطلب منكِ شيئًا..

جُننتُ يوم أن رأيتكِ تُهرولين لأحضان رجلٍ غيري..

جُننتُ لأنني تركتكِ كل هذه السنوات لا تعرفين بماذا أشعر تجاهكِ..

أحببتُ فصمتُّ. أعطيتُ فخُذلت. صُفعت فجُننتُ.. حلَّ بي الجنون.

صمتَ قليلًا وهو يتحرك ببطءٍ تجاه ستار كبيرٍ ويقول:

في الفترة الأخيرة كنتِ دومًا تتساءلين: لماذا كل لوحاتي أصبح أبطالها نساءً معذبات، يظهر على أجسامهن التعذيب، وعلى وجوههن الألم والحزن؟!

سأريكِ الآن سر بَطلاتِ لوحاتي، وكيف برعتُ في تجسيدهن وتجسيد آلامهنَّ وكأنني أراهن رؤية العين..

وفي حركةٍ مسرحية أزاح الستار. كاد أن يُغشى عليَّ عند رؤية ما أزيح عنه الستار. أخذتُ أبكي بهستيريا وأردِّد:

أنت مجنونٌ، أنت مختلٌّ. كيف لك أن تفعل هذا؟ وكلما أغمضتُ عيني حتى لا أرى أبشع منظرٍ لم أكن حتى أتخيلُ أنني سأراه يومًا صرخ بي صائحًا:

افتحي عينيك ولا تغلقيهما وإلَّا قتلتكِ..!!

فتحت عيني خوفًا منه، لأرى أربعة ألواحٍ من الخشب مثبت عليها أربع فتياتٍ قد فارقن الحياة.. يظهر على أجسامهن آثار التعذيب الذي مارسه عليهن، ويبدو أنه كان يعذب كلًّا منهن حتى الموت، ويتركها مثبتةً على اللوح، حتى بدأت أجسامهن في التعفُّن. كدت أجنُّ من هول المنظر؛ فأحنيت رأسي حتى لا أرى شيئًا، فاقترب مني ثم أمسك بشعري ورفع رأسي تجاهَ الستار وقال:

انظري ماذا فعلتِ!.. انظري يا حبيبتي، هذا فِعلُ حبي لكِ.

صِحتُ مستنجدةً: أرجوكَ، لا أستطيع أن أنظر. ماذا فعلتَ بهنَّ؟ ما ذنبهن؟ لا أصدق أنكَ تفعل ذلك.. لماذا؟ لماذا؟!

ترك رأسي بعنفٍ وصرخ قائلًا: أتسألين لماذا؟! لأنني أحببتكِ. لأنني أعطيتكِ كل ما أملك من مشاعر ولم تشعري بي.

ألقيتِ بحبكِ بين كفي غيري، وتركتِني في مهبِّ الريح وحدي.. أواجه ضربات الهوى والخذلان.

حاولتُ أن أداوي جراحي بدواءٍ ظننت أنه سيُفلح؛ فكلما تعرفتُ على غيركِ لا أشعر إلَّا بكثير من الأسى والإهانة، فأجد نفسي أنتقم منكِ فيها.. أبوح لها بحبكِ أنتِ، وما أشعر به من حُزن، وكيف أنني ما عدت أحتمل فكرة أنكِ لشخصٍ آخر غيري! فتهبُّ لتذهب وتتركني؛ فأنتقم منها بكلِّ أنواع العذاب حتى تهدأ نفسي، ولا أفيق إلَّا وقد فارقت الحياة..

هل عرفتِ الآن ماذا فعلتِ بي؟

هل علمتِ كيف أيقظتِ وحشًا كاسرًا بداخلي كنت أجهل وجوده؟

لقد أضعتِني. حلَّ مكان رامز الفنان المُحب الذي يحبه الناس جميعًا.. غولٌ لا يشبع.. لا يريحه إلا منظر الدم وعذاب مَن أمامه.. وتعود رُوحه للثورة مرةً أخرى.

علَّكِ تتساءلين: لماذا أتيتُ بكِ الآن؟

حتى أساعدكِ لآخر مرةٍ تقابليني فيها، في كتابة روايةٍ جديدة أظنُّ أنك لم ولن تكتبي مثلها أبدًا، مهما أغدقت عليك قريحتُكِ وموهبتكِ بروايات وقصصٍ قصيرة، وكل لونٍ من ألوان الأدب. لن أقتلكِ.

سأتركُكِ تعيشين وتتزوجين ممَّن اختاره قلبكِ، ولكن بشرطٍ واحد: أن تكون الرواية الجديدة عني وعمَّا وصلت إليه، وستعدينني بذلك، ولن تستطيعي أن تُخلفي الوعد؛ لأنني وقتَها سأعود وسأنتقم منكِ ومن حبيبكِ محمود.. سأقتله وأتركِ تعانين لوعات الحُزن عليه؛ لتشعري بما مررت به. سأراقبكِ حتى تكتبي الرواية ويُذكر بها اسمي.

وفجأةً أظلمت الدنيا، وسمعتُ صوت رشا تنادي

باسمي، وصوت محمود ينادي معها.. أخذتُ أصرخ عليهما بهستيريا: أنا هنا.. أنا هنا!

تتبعا صوتي، ووصلا للقبو.. وقاما بإنارة الضوء، وفكَّا وثاقي.. صرخت رشا عندما وقعَتْ عيناها على الألواح، وكادت تفقد وعيَها، فأمسك بها محمود، ثم أخرج هاتفه واتَّصل بالشرطة وأبلغ عن الواقعة.

حضر رجال الشرطة للموقع، وأخذوني للمشفى لأتلقَّى العناية اللازمة..
وتوالى البحثُ عن رامز ولكنهم لم يجدوا له أثرًا حتى الآن، ومكثتُ أنا في المشفى لمدة أسبوعٍ حتى استطعتُ الحركة مرةً أخرى..
وظللتُ لمدة عامٍ كامل أتلقَّى العلاج النفسيَّ للعبور من تلك التجربة المريرة.. وأخذت عامًا آخر أحاول أن أستعيد رُوحي، وقررتُ كتابة الرواية التي وعدتُه بكتابتها، وهـأنذا أحققُ بها نجاحًا فاق كلَّ النجاحات التي نتجت عمَّا كتبتُ من قبل.. ولا أحد يعلم أنني بطلة تلك الرواية غيركِ الآن..
وكنتُ قد تناسيتُ ما حدث، وبدأتُ أندمج في حياتي مرةً أخرى، حتى وصلتني رسالةٌ على هاتفي ونحن في حفل التَّوقيع من رقمٍ لا أعرفه، يهنئُني على نجاح الرواية، ويُخبرني أنه موجودٌ بجانبي كما كان دومًا..
ولهذا سميتُ الرواية "حتى يُذكر في الرِّواية".

عن مبادرة
في القراءة حياة اخرى

مطلوب

قائمة المحتويات

رقم	اسم الكاتبة	عنوان التذكرة	الصفحة
١	جيهان سرور	النصيحة الملعونة	٠٥
٢	سلوى مرجان	الثقب	٢١
٣	د/ أمنية شفيق	حنـان	٣١
٤	أمانى الصغير	ماوراء الظلال	٤٣
٥	د/ نورا عفيفي	المواجهة	٥٧
٦	د/ نورا عفيفي	لست نكدية	٦٥
٧	صفاء متولى	لاعزاء للأغبياء	٧١
٨	مى وحش	شر لابد منه	٨١
٩	رانيا بيومى	الطريق	٩٥
١٠	ساره الجندى	أسطورة القط الفرعونى	١٠٩
١١	هبه محمد كامل	نجاة قلب	١٢١
١٢	ريم جمعة	همس الأجنة	١٢٧
١٣	مي محمد حمزة	كاتبٌ لأوَّلِ مرَّة	١٣٩